أسرار الخطبة الغراء
لمولاتنا فاطمة الزهراء (عليها السّلام)

تأليف

الشيخ عبد الكريم العقيلي

منشورات

مؤسسة بضعة المصطفى لإحياء تراث أهل البيت (ع)

http://www.oqaili.com

http://www.oqaili.net

http://www.oqaili.org

info@oqaili.com

Tel:00982517725236

bthalmustafa@yahoo.com

هويّة الكتاب

الكتاب: أسرار الخطبة الغرّاء لمولاتنا فاطمة الزّهراء صلوات الله عليها

المؤلف: الشيخ عبد الكريم العقيلي

النّاشر: مؤسسة بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام

السّنة: 1422 هـ.ق - 2001 م

صفّ الحروف والإخراج الفنّي: احمد علي

حقوق الطبع والنشر محفوظة لمؤسسة بضعة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا فه واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصر على القوم الكافرين﴾.

صدق الله العليّ العظيم

البقرة: 286

الإهداء:

سيدتي أيّها الصّديقة المظلومة، فاطمة الزهراء، التي عاشت قبل الزمن ومع الزّمن وسوف تبقى خالدة بعد الزّمن.

إليك يا سيّدتي...

يا من يرضى الله لرضاها، ويسخط لسخطها...

إليك يا من وصِلت بها حلقة النّبوّة بالإمامة...

يا أمّ أبيها...

يا زهراء... يا راضية... يا مرضية...

سيدتي، ما عسى عبدكم أن يقول، إلاّ أن يجدّد العهد لله على أن يبقى عبداً مطيعاً لله تعالى ولكم، متمسكاً بما أمر الله تعالى به، وهو ولايتكم والبراءة من أعدائكم.

(يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضّر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إنّ الله يجزي التّصدّقين)

سيّدتي... أُهديك كتابي هذا، وهو بضاعتي المزجاة، وصحيفة ولائي الخالص، راجياً من الله تعالى ومنكم القبول.

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، محمّد الأمين، وعلى أخيه أمير المؤمنين، سيّد الوصيّين، وقائد الغُرّ المحجّلين، عليّ بين أبي طالب، وعلى سيّدة نساء العالمين، الحوريّة الإنسيّة، فاطمة المرضيّة، وعلى أبنائها الطّاهرين، لا سيّما الإمام الموعود لكسر القيود، والأمل المنشود، الإمام الحُجّة بن الحسن. واللّعنة الدّائمة الأبدية، على أعدائهم وغاضبي حقوقهم، ومنكري فضائلهم.

وبعد:

لقد حُظي كلام المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، بعناية فائقة منذ فجر الإسلام المحمّدي وحتّى عصرنا الرّاهن، وسوف يبقى مناراً للأجيال إلى ما شاء الله تعالى.

فتداوله العلماء والحكماء، والخطباء والشّرّاح، بالنّقل والشّرح والتّحليل، فكلّ أدلى بدلوه، واغترف من منهلهم العذب المعين، على قدر قابليته وإدراكه وايمانه. فما عسى أن يقول الإنسان في مقام الأئمة الأطهار وأمّهم الزّهراء، صلوات الله عليهم أجمعين. وهم عدل القرآن، بل هم القرآن النّاطق كما أخبر

الرّسول الأكرم بذلك. مع هذا كلّه تجد البعض ممّن لا شغل له إلاّ إثارة الشّكوك، هنا وهناك، وايراد المغالطات المسمومة، الغرض منها حرمان البشريّة من هذا النّور السّاطع

المتمثل بمحمّد وآل محمّدير(**يدون ليطفؤا نور الله بأفواهم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون**[1].

تصفّحت منذ أيام كتاباً لأحد الكتّاب ما أن اطّلعت على مقدمة الكتاب إلاّ وشممت منه رائحة الشّعوبية والحقد الأسود. جاء فيه ما مضمونه: إنّ الشّيعة – في مصطلحة الرّوافض– تتعامل مع كلام أئمتهم كتعاملها مع القرآن وكلام الرّسول، ويقولون أن أئمتهم محدّثون، تأتيهم الملائكة وتحدّثهم، ولهم مصحف يسمّونه مصحف فاطمة، وصحيفة فاطمة، وينسبون إلى الإمام عليّ كتاباً يسمّونه علم الجفر، وعندهم هذه الكتب أتمّ وأشمل من القرآن، وهم يعتقدون بنبوّة فاطمة وعليّ...

أقول: إنّ الجهل والتّعصب الأعمى ربّما يقود الإنسان إلى إنكار المسلّمات، والتّغافل عن أوضح الواضحات. نعم، الشّيع تعتقد بإمامة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وتتعامل معهم كتعاملهم مع القرآن الكريم ومع الرّسول الأمين، وأنّ أئمتهم محدّثون، تأتيهم الملائكة وتحدّثهم، وعند أئمتهم مصحف فاطمة، وعندهم صلوات الله عليهم كتاب الجفر. ورثوا كلّ ذلك عن فاطمة وعليّ، باملاء الرّسول الأكرم وأنّ هذا ممّن تواتر فيه النّقل وهو من المسلّمات التي يدعمها النّقل والعقل. أمّا قوله: بأن الشّيعة تقول بعدم تمامية القرآن، أو أنّ القرآن محرّفاً، وأنّ هذه الكتب هي أتمّ وأشمل من القرآن، أو أنّ الشيعة تقول بنبوّة فاطمة وعليّ فهذا محض أفتراء، ولا يستحق أن يقام دليل على نفي هذا؛ لسذاجة قائله وقلّة اطلاعه، بل مجرد نظرة سريعة على التّراث الشّيعي يبطل ذلك. فهذه عقائدنا

مدوّنة بين مطبوع ومخطوط. ونحن بحمد الله تعالى في عصر التّطور والعلم، وكلّ شيء يمكن الوصول إليه، وهذه مدارسنا العلمية التي تدرّس فيها عقائد الشّيعة منذ أكثر من ألف وأربعمئة سنة، ففتّش في هذا كله هل تجد لهذه الأقوال أثراً. ولكن – كما قلنا – الجهل

---

١) الصّف: 8.

والتّعصب الأعمى يقودهم على الإفتراء والكذب والصاق التّهم بالآخرين بدون دليل أو برهان.

ما ذنب الشّيعة إن تمسّكوا بما أمرهم الله تعالى ورسوله به. فعندما نتمسك بأئمتنا فإنّنا ننصاع لأمر الله تعالى، ونطبق تعاليمه، ونتمسّك بوصيّة رسول الله ﷺ وننقاد لأوامره. فالقرآن الكريم والرّسول العظيم والعقل السّليم هم الذين يأمروننا بذلك. قال **يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم**)[1]. وأيضاً المتفحّص لأحاديث ووصايا الرّسول الأكرم ﷺ سوف يجد هذا الأمر واضحاً جليّاً. أنظر حديث الثّقلين، وحديث الغدير (حديث الولاية) وحديث السّفينة وغيرهم من الأحاديث المتواترة، التي تدلّ دلالة واضحة على وجوب التّمسّك بحبل الله المتين، المتمثل بمحمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين. وكذا العقل يحكم بذلك ويقرّره. فإنّ الله تعالى سيّد العقلاء، ورسوله الّذي لا ينطق عن الهوى إنّما هو وحي يوحى، ما أمروا بذلك إلاّ لأنّ لآل محمّد شأناً خاصّاً ومقاماً مقرّباً عند الله فلهم القيادة والإرادة في جميع الأمور الدينية، والدّنيوية، سواء في مجال العقيدة والشّريعة كتوضيح الأحكام، وقيادة الأمة أو في مجالات أُخر لا يسعنا التّطرّق إليها في هذه الوريقات، ويكفي الإنسان اللّبيب النّظر في سيرتهم عليهم السلام حتّى يحكم وينقاد لهم إنقياداً تاماً. ونقل ابن شهر آشوب في مناقب أبي طالب، قال: ينقل أن في عهد المتوكّل العباسي (لع)

فجر رجل نصراني بامرأة مسلمة، فاستدعى المتوكّل القضاة، ومنهم يحيى بن أكثم، كبير القضاة في عهده، وأخذ رأيهم في المسألة. فأرادوا أن يقيموا عليه الحدّ، فأسلم الرّجل. فقال يحيى بن أكثم: (الإسلام يمحو ما قبله). وقال بعض القضاة: (يُضرب ثلاثة حدود). فاختلف القضاة اختلافاً كبيراً، فأرسل المتوكّل إلى الإمام الهادي عليه السلام يسأله في المسألة. فكتب إليه الإمام، صوات الله عليه: (يُضرب حتى الموت). فأنكر القضاة ذلك. فكتب إلى

---

١) النّساء: 59.

الإمام يسأله عن العلّة،فكتب الإمام: [بسم الله الرحمن الرحيم] **(رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركون * فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا سنّت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)**[1]. فأمر به المتوكّل فضُرب حتّى الموت[2].

هذا نموذج من علمهم وإحاطتهم بكتاب الله وسنّة رسوله.

إذن علينا – إن أردنا النّجاة حقّاً – أن نجتهد ونثابر ونتمسك بولاية الأئمة الهداة، ونجعل كلماتهم ومنهاجهم مناراً نستنير به الظّلام، ونعلن البراءة عمّن أنتهج العداء الواضح والمكشوف لأهل البيت صلوات الله عليهم، أو من سوّلت له نفسه بالإبتعاد عن نهج الأئمة الأطهار، سواءً عن طريق الجهل أو التّجهال، مثل التّشبّث ببعض المغالطات، كالتّقريب الأجوف، الّذي يؤدي إلى التّساهل والتّنازل عن كثير من الأمور التي هي من صُلب العقيدة والمذهب، فنحن نلاحظ ونسمع بين الحين والآخر نداءات مبحوحة، مسمومة، ظاهرها التّقريب وحقيقتها التّخريب، يثيرها المغرضون، أعداء محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين، من الشّرق والغرب، تنطلي هذه النّداءات على الكثير من السّذّج، والذين لا يتحلّون بالمعرفة

والإدراك والإيمان، حتّى تكون هذه النّداءات شعاراً لهم، في مجالسهم وفي كتبهم ومناقشاتهم، مما أحدث هذا شرخاً كبيراً بالمسلمين، فاضطربت الأفكار والآراء، وتعدّدت الفرق والمذاهب، وأصبح الدّين الواحد أديان متعددة، والأمة الواحدة أمم متناثرة، ضعيفة. ونحن نخاطب الجميع، وقصدنا من كلّ ذلك النّصح لله ورسوله، وأهل بيته الميامين، ونقول: يا مسلمون، بكلّ صنوفكم، وبكلّ طبقاتكم واتجاهاتكم، تمسّكوا بالقرآن النّاطق، محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين، تفلحوا، وتقوى شوكتكم؛ فإنهم صلوات الله عليهم

---

١) غافر: 84-85.
٢) مناقب آل أبي طالب: 405/4.

لا يوردوكم إلاّ إلى النّجاة لكم ولكلّ البشرية، وما داخلكم الضّعف والفتور والهوان إلاّ بابتعادكم عن محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم. ونحن لا نجتهد في هذا كثيراً، بل أنّ المنطق والعقل السّليم يقرر ذلك، ويدعمه. قالت المناطقة وكفرضية مسلّمة: (إنّ المقدمات الصّحيحة تؤدي إلى نتائج صحيحة، وإنّ المقدمات الخاطئة تؤدي إلى نتائج خاطئة حتماً) وإنّ المقدمات الصّحيحة منحصرة بمحمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم، وإنّ التّمسّك بغيرهم حتماً يؤدي إلى نتائج مزرية، بل ربما يوصل الأمة إلى كارثة كبيرة، كما حصل فعلاً من نتائج السّقيفة الملعونة، فتلك حكومة بني أمية وبني العباس، وكلّ الظّلم والتّعسف والطّغيان إنّما هو نتج عن أثر ذلك اليوم المشؤم.

إذن، فلنتمسك بولاية أهل البيت، صلوات الله عليهم، ونفهم كلامهم، ونتمعّن في كلام السّيدة الصّدّيقة، فاطمة الزهراء، صلوات الله عليها، في خطبتها النّورانية، التي هزّت بها أركان الظّلم والطّغيان، وأزالت الغشاوة عن عيون النّاس، فسوف نجد أنّ كلامها لم يكن مجرد مجادلة أو محاججة مع القوم فحسب، بل أنّ كلامها دستور للعقائد والتّشريعات الإسلامية بكلّ صورها، وألوانها، في التّوحيد وفي النّبوّة والإمامة والمعاد والعدل، فهو شامل للنواحي التّكوينية والتّشريعية. ولهذا

عندما عزمنا على شرح هذه الخطبة، وتوضيح بعض الأسرار فيها استعنّا على ذلك بمراجعة العديد من المصادر، كالقرآن والسّنّة النّبويّة الشّريفة، وكتب اللّغة والسّير والتواريخ، وما إلى ذلك من المصادر، ومع هذا كلّه، فكلامنا مجرد إشارات وتنبيهات إلى كلامها النّوراني، الّذي لا يؤمن به إلاّ من امتحن الله قبله للايمان، كما ورد عن الرسول الأكرم (ص)، أنّه قال: إنّ حديث آل محمّد صعب مستصعب، لا يؤمن به إلاّ ملك مقرب، أو نبيّ مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من حديث آل(ص)، فلانت له

قلوبكم، وعرفتموه، فاقبلوه وما أنكرته قلوبكم فردّوه إلى الله والرّسول، وإلى العالم من آل محمّد[1].

ولابدّ من الإشارة، إلى أنّنا رتّبنا هذا الكتاب، على نحو بحوث نبحث فيها بعض أسرار الخطبة النّورانية، لسيّدة نساء العالمين، صلوات الله عليها، منها، بحث في أسانيد هذه الخطبة الغرّاء من مصادر الخاصّة والعامّة، وبحث في معارف الحمد. وبحث في حقائق التّوحيد. وبحث في المشيئة. وبحث في البرهان المسمّى: غنى الله المطلق. وبحث في أنّ الوجود بأسره هو لاجل آل محمّد (ع)وبحث في نشأة الأنوار المحمّدية قبل الخلائق. وبحث في المصطفى(ص)وأنوار وجوده. وبحث في أسرار الايمان وانطباقه على الولاية الكبرى وغيرها من الأبحاث التي ستوافيك في طيّات هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

اللّهم إنّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحصي ثناءً عليك أنت على نفسك.

شكر وتقدير:

لا يفوتني أن أُقدم شُكري وتقديري ودعائي إلى الكادر العلمي والاداري في مؤسسة بضعة الرّسول(ص)لإحياء تراث أهل البيت عليهم السّلام، وأخصّ بالذّكر منهم: الأخ الكريم أبا مهدي الزّيدي، والسّيد الجليل أبا محمّد عليّ العسكري، وأخي العزيز أبا رضا العقيلي، والأخ الموالي حسن الخراط على الجهود الكبيرة التي بذلوها لاعداد هذا الكتاب، وتخريج نقوله القرآنية والحديثية، وترتيب الفهارس العامّة له، فجزاهم الله خير الجزاء بمحمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين.

1/ ذي الحجة 1421 هجري

[1]) الكافي الشّريف: 1 / 401.

في عشّ آل محمد(ص)

عبد الكريم العقيلي

أسرار الخطبة الغرّاء.....14

البحث الأوّل

بيان أسرار الخطبة الغرّاء مع الاشارة
إلى أسانيدها من مصادر الخاصّة والعامّة

روى عبد الله بن الحسن المثنّى عن آبائه (ع) أنّه لمّا أجمع أبوبكر وعمر على منع فاطمة فدكاً، وبلغها ذلك، لاثت خمارها على رأسها، واشتملت بجلبابها، وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص) حتّى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والانصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثمّ أنّت أنّة، أجهشَ القوم لها بالبكاء، فارتجّ المجلس، ثمّ أمسكت هنيئة، حتّى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثّناء عليه، والصّلاة على رسول (الله ص)، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها[1]

ينبغي أن نحلّق في أجواء هذه الخطبة الغرّاء التي صدعت بها مولاتنا الزّهراء (ع) فهي عبارة عن كمّ هائل من المعارف والعقائد، وكمّ هائل وخضم واسع من الحقائق والبراهين

[1]) انظر الاحتجاج: 1 / 131، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 16 / 345.

والإستدلالات في مختلف المجالات التكوينية منها والتشريعية، ينبغي أن نتعرّف على هذه المعاني السّامية وهذه المفردات الواسعة معنىً ومساحةً في مختلف الشّؤونات.

لذا يتسلسل البحث موضوعياً ومنهجياً في هذه المعارف على لسان أُمّ الأئمة النّجباء، عليها وعليهم السّلام، ويكون الحديث طيباً والمعاني عميقة إذا كان صادراً عن الأئمة وأمّ الأئمة، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وسيتضح أنّ هذه الخطبة فيما تعرضه من معانٍ سامية كُلّها رموز وكُلّها إشارات.

أين أولوا الألباب عنها؟

أين أهل المعرفة والأذواق العرفانية عن هذه المعاني العالية؟

وسيتضح لنا جميعاً في معرض سرد هذه المقاطع التي تفوّهت بها بضعة المصطفى (ص)، هي الجواهر واليواقيت التي صدرت عنها (ع)؛ لترسم لنا حقيقة الدّين، ولتبين لنا المنهج المحمّدي القويم.

ونحن نعيش ذكرى أوّل فاجعة في تاريخ الإنسان على وجه العموم، وفي تاريخ الإسلام على وجه الخصوص، وهي شهادة المظلومة المقهورة فاطمة بضعة المصطفى (ص)، ولهذا يجب أن تكون المجالس والأندية والمحافل حافلة بهذه البيانات الفاطمية، والمعارف الإلهية حتّى نتوصل إلى الحقّ ومعرفته، ثمّ إتباع ذلكم الحقّ وإتباع أهله، وهذه من السّنن التي فطر عليها الإنسان، إذ أنّه بذاته يبحث عن الكمال، وبذاته يتدرّج نحو معرفة أهل الكمال، ولا كمال ولا أهل كمال إلاّ وتجلّى في محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين.

إنّ كلام الزّهراء (ع) في هذه الخطبة قد تناقله المؤرخون والرّواة خلفاً عن

سلف، وكان أهل البيت (ع) وعموم آل أبي طالب يعلّمونه أولادهم.

عن زيد بن عليّ بن الحسين بن زيد بن عليّ بن الحسين(ع)، وهو زيد الأصغر، من أصحاب الامام الهادي(ع) قال: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم، ويعلّمونه أولادهم، وقد حدّثني به أبي عن جدّي، يبلغ به فاطمة(ع)[1].

وكانت المدارس الولائية الشّيعية والإسلامية بصورة عامّة تتدارس هذه المعارف حرفاً بحرف وكلمة بكلمة، ليتوصلوا إلى أسرار كانت في صدر فاطمة، صلوات الله عليها، فهنا إذاً أبحاث هامّة نعرض لها بشيء من الإسهاب والتّفصيل تباعاً إن شاء الله.

نبتدئ أوّلاً وقبل كلّ شيء في سند هذه الخطبة ومن رواها عن الميامين، عن الصّدّيقة الكبرى(ع) لتكون موضع نظر للمتأملين، وعروجاً للعارفين، وسموّاً لمن أراد الحقّ ومعرفته، ولمن أراد معرفة آل محمّد(ص)، لذا ينبغي أن نتعرض في الوهلة الأولى إلى هذه الجهة.

إنّ هذه الخطبة رواها الموالف والمخالف، يعني ليس في مستوى الشّيعة وحسب، وانّما تصدّى لنقلها وشرحها وإيرادها علماء من أهل السّنّة وكُتّابهم ونقلها رواتهم، فهذه الكتب والمصادر تؤكّد أنّ هذه الخطبة الفاطمية صادرة عنها بموجب هذا الإتفاق بين الفريقين، وهذا أمر مهمّ يتوجب معرفته في فاتحة الحديث، فإنّ هذه الخطبة ليست فقط في كتبنا ومصادرنا ومن علمائنا، وانّما تصدّى لها الكثير من علماء العامّة أيضاً، ممّن كان له أدنى مسكة في الورع والتّقوى وممّن يريد نقل الحقائق إلى الأجيال.

أوّلاً: من رواها من العامّة:

1- نقل هذه الخطبة بشيء من التّفصيل عبد الحميد بن أبي الحديد المتوفى 656هـ في كتابه (شرح نهج البلاغة) ورواها بطرق عديدة[2]

---

[1]) الشّافي / المرتضى 4: 76، شرح ابن أبي الحديد 16: 252.

[2]) شرح ابن أبي الحديد: 16 / 211-213 و 249 و 252.

2- أبو بكر الجوهري، المتوفّى سنة 323هـ نقل هذه الخطبة في كتابه المعروف بـ(السّقيفة وفدك)، بطرق متعددة، طريق منها ينتهي إلى الإمام (ع) وآخر منها ينتهي إلى الإمام الصّادق(ع)، وطريق ثالث ينتهي إلى الحسن المثنى(ع)، الّذي نقلت عنه هذهِ الخطبة آنفاً.

3- وممّن روى هذه الخطبة ابن طيفور المتوفّى سنة 280هـ في كتابه (بلاغات النّساء)، وهو من المصادر المهمة، رواها عن الأئمّة(ع)، وعن زينب إبنة أمير المؤمنين(ع) وأسندها إليهم[٢]، ممّا يدل على أنّهم رووها بطرق عن مشايخهم وأساتذتهم تنتهي إلى الأئمّة(ع).

4- ورواها مجد الدّين أبو السّعادات المبارك بن محمّد الجزري، المعروف بابن الأثير، والمتوفّى سنة 606هـ في كتابه (منال الطّالب في شرح طوال الغرائب)[٣].

5- ورواها الخوارزمي المتوفّى سنة 568هـ عن الحافظ ابن مردويه، في كتابه (مقتل الحسين (ع))[٤].

6- ورواها الأُستاذ عمر رضا كحالة، في كتابه (أعلام النّساء) عن طريق صاحب بلاغات النّساء[٥].

هذه مجموعة من الطّرق والمصادر، والعلماء الذين تبنّوا نقل خطبة الزّهراء(ع)

ثانياً: - وأمّا في كتبنا فالّذي تصدّى لنقلها كثير من علمائنا الأعلام منهم -:

---

[١] انظر كتاب السّقيفة وفدك.
[٢] بلاغات النّساء: 21.
[٣] منال الطّالب: 501-507.
[٤] مقتل الحسين (ع): 1 / 77.
[٥] أعلام النّساء: 3 / 1208.

1- الشّيخ الصّدوق، أورد بعض مقاطعها في (علل الشّرائع) بسند ينتهي إلى زينب بنت عليّ (ع) (عليهما السلام) وطرق أُخرى عديدة[1]

2- السّيد المرتضى، بإسناده وطريقه المنتهي إليهم (عليهم السلام)[2].

3- الشّيخ الطّوسي (رحمه الله) عن المرزباني بطريقين[3]

4- الطّبري في (الدّلائل) بتسعة طرق[4]

5- السّيد ابن طاووس من مصادر معتبرة[5]

6- العلاّمة الطّبرسي في (الاحتجاج)[6]

إذاً من خلال نقل العامّة والخاصّة لهذه الخطبة يقطع الإنسان - كما يقول العلاّمة المجلسي - بصدورها عن فمّ بضعة المصطفى (ص).

وفضلاً عن ذلك فإنّ من نظر لألفاظ هذه الخطبة، وقوّة سبكها، وجزالة ألفاظها، وجمال أسلوبها، ورصانة تراكيبها، وبدائع معانيها، يقطع بأنّها خطبة صادرة عن سيدة أهل البيت، وعترة النّبيّ المصطفى (ص) الذين أتوا الحكمة وفصل الخطاب.

ومن هنا قال المجلسي: لقد تحيّرت أحلام البلغاء والفصحاء في مضامينها ومعانيها ورموزها، وما فيها من عجائب وغرائب في مختلف المجالات التّكوينية.

وسألفت النّظر إلى بعض المعاني العميقة في هذه الخطبة، منها قولها (عليها السلام): **الخلائق بالغيب مكنونة** حينما تتحدّث عن النّبيّ (ص) **وأرسله الله تعالى واختاره**

---

[1]) علل الشّرائع: 248 ح2 و3 و4.
[2]) الشّافي: 4 / 69-77.
[3]) تلخيص الشّافي: 3 / 139-143.
[4]) دلائل الامامة: 30-39.
[5]) الطّرائف: 263-268.
[6]) الاحتجاج: 1 / 131- 144.

قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدّم مقرونة، علماً من الله بمآيل الأمور، واحاطة بحوادث الدّهور، ومعرفة بمواقع المقدور.

ومن المقاط التي يقطع الإنسان بأنّها صدرت عنها، صلوات الله عليها، قولها: **أكلتم على شفا حفرة من النّار، مذقة الشّارب، ونهزة الطّالع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطّرق، وتقتاتون الورق، أذلّة خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم النّاس من حولكم، فأنقذكم الله بأبي محمّد (ص)).**

هذه مضامين عالية ومعاني سامية.

ومنها أيضاً قولها (عليها السلام): **لم تلبثوا إلاّ ريث أن تسكن نفرتها، ويسلسل قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشّيطان الغويّ، وإطفاء أنوار الدّين الجليّ، وإخماد سنن النّبيّ الصّفيّ).**

ثم تبيّن صلوات الله عليها في آخر معرض خطابها الإستدلالي: **أيّها المسلمون، أأغلب على إرثي؟! يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك**

ولا أرث أبي؟! (((لقد جئت شيئاً فرياً)))[1] أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: (((وورث سليمان داود)))[2] وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا إذ قال: (((فهب لي من لدنك وليّاً يرثني* ويرث من آل

---

[1]) مريم: 27.
[2]) النّمل: 16.

يعقوب)))[1]. وقال: **((يوصيك الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)))**[2]. وقال: **(((إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتقّين)))**[3]

وزعمتم ألاّ حظوة لي ولا أرث من أبي ولا رحم بيننا، أفخصّكم الله بآية أخرج منها أبي (ص)؟! أم هل تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمّي؟!

فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزّعيم محمّد (ص).

كلّ هذه الكلمات تنطوي على معاني دقيقة، من يتفوّه بهذه الكلمات وبهذه الجواهر النّازلة من عوالم الغيوب على هذا البشر المنكوس الذي لا يعرف لهم قدراً ولا يقيم لهم وزناً؟ ذلك لأنّهم قوم أخذوا على أنفسهم الذّلّ، أذلة خاسئين، لكن على الرّغم من هذه الحقائق تصبح فاطمة (ع) وحدها في المواجة تنتقل من ميدان إلى ميدان.

الكلمات الواضحة في التّعريف بالقوم، وبيان الإنحراف الخطير بعد الرّسول (ص).

وسنتناول بعض ما ورد في الخطبة الشّريف من معاني ونتتبعها واحدة بواحدة، وكلمة بكلمة، وجملة بجملة حتى يتضح الحقّ، وحتى يسفر اللّيل عن صبحه، ويفصح الحقّ عن محضه، وحتّى يتجلّى كلّ شيء من خلال كلمات فاطمة المظلومة، صلوات الله عليها.

أمّا في مجال متن هذه الكلمات. فلمّا أجمع كلّ منهما على منع فاطمة (ع) فدكاً وبلغها ذلك، لاثث خمارها، واشتملت بجلبابها الملكوتي، وأقبلت في لمّة (جماعة) من حفدتها

---

[1]) مريم: 5و6.
[2]) النّساء: 11.
[3]) البقرة: 180.

(أعوانها وخدّامها) ونساء قومها، تطأ ذيولها (كناية عن أنّها لابسة أكثر من ثوب، تستّرت بثياب عديدة كانت أطول من بدنها بحث تطأ ما زاد من الثّياب) ما تخرم مشيتها (ما تنقص في مشيتها من) مشية رسول الله (ص)، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد (جماعة كثيرة) من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت (علّقت) دونها ملاءة (ستر).

ثمّ أنّت أنّة، المراد بالأنة: ومدّ الصّوت من قبل المفجوع بفاجعة، والمكثول بثكلّ وشدّة، إذا كان في موضع يبثّ فيه الهمّ والحزن. والتّأوه: عبارة عن الصّوت العظيم الذي يسحق القلوب ويجعل الإنسان متأثراً.

لقد أرادت الزّهراء (ع) أنّ تقول في مقدمتها إنّ كلّ ما عندي من تفجّع، ومن بيان إنّما هو ناشئ مما وقع عليّ من ظلم وتعسّف، وتجعل من ذلك محوراً لخطبتها.

ثمّ أنّت أنّة أجهش لها القوم بالبكاء، الإجهاش هو: (تحريك، اضطراب، إرتعاب)، من أثر أنّة الزّهراء (ع)، وهذا من الآثار التكوينية لأنة الزّهراء (ع).

والإجهاش: هو عبارة عن: (فزع الإنسان إلى معشوقه ومحبوبه بعد فترة إنقطاع كبيرة، كما يفزع الصّبي عندما يشاهد أمّه تقبل عليه ويهمّ بالبكاء) صاروا

في حالة كالطّفل الذي وردت عليه أمّه، كلّ ذلك من أثر أنّة الزهراء (ع)، أنّتها تفعل فعلتها في عوالم التّكوين، والتّشريع، صلوات الله وسلامه عليها.

جاء في الزّيارة الجامعة الكبيرة[1] **ذِكْرُكُم في الذّاكرين، وأسماؤكُم في الأَسمآءِ، وأجسادُكم في الأجسادِ، وأرواحكم في الأرواح، وأنْفسُكم في النّفوس، وآثاركم في الآثارِ، وقُبورُكم في القبورِ** فما معنى هذه العبارات؟ المراد بها: إنّه ما من ذكر، وما من روح، وما من جسد، وما من أثر أو قبر، إلاّ أنتم فوق ذلك كلّه. لا يعلو ذكر أحد على

[1]) مقطع من الزّيارة الجامعة: أنظر من لا يحضره الفقيه للصدوق: 372/2 (دار الكتب الإسلامية)، عيون أخبار الرّضا (ع) له: 307/1 (مؤسسة الأعلمى - بيروت)، فرائد السّمطين للجويني: 184/2 (المحمودي - بيروت).

ذكركم، ولا روح أحد ـ حتى من أولي العزم ـ على أرواحكم، ولا نفس أحد على نفوسكم، ولا قبر في شرق الأرض وغربها يعلو على قبوركم، فكلّكم تميّزتهم بكلياتكم، بشراشركم، بأرواحكم، بأجسادكم، بمنطقكم، بكلامكم على كلّ روح ومنطق وكلام وبيان.

وهكذا كان أثر أنّة فاطمة الزّهراء (ع)، أجهش لها القوم بالبكاء فارتجّ المجلس، أنّة الزهراء (ع) توجب ارتجاج التّكوين.

ارتجّ المجلس: حدث فيه اضطراب وعدم استقرار، وهكذا يذكرنا بأنّ المولود منهم (عليهم السلام) يرتج له كلّ شيء، وخصوصاً (ص) لمّا ولد ارتجّ إيوان كسفهي تريد أن تبين بأنّ ارتجاج هذه المجالس وارتجاجات تلكم الإيوانات التي كانت لعظماء فارس، فأنتم كأولئك لا يختلف الأمر، ونحن كالنّبيّ إذا حلّ واحد منّا في مجلس استحوذ عليه بكليته.

ثمّ أنّها (عليها السلام) لمّا ارتجّ المجلس أمهلتهم هنيهة[2] كتهم يستريحون، حتّى إذا سكن نشيج القوم. النّشيج: (عبارة عن صوت معه بكاء يتردد في الصّدر[3]) يدل على أنّ المجلس كان حامياً إلى حدّ الغليان، بفعل أنّة الزّهراء (ع).

حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم. الفورة: (بمعنى الغليان، كالماء عندما يغلي على أثر الحرارة، فكذلك حرارة أنّتها، جعلت أهل المجلس في حالة غليان) حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله، والثّناء عليه، والصّلاة على رسول الله (ص)، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها.

---

[1]) انظر في ذلك السّيرة الحلبية: 119/1، بهجة المحافل: 52/1، جواهر البحار في فضائل النّبيّ (ص): 9/2 وغيرها من المصادر.

[2]) الهنيهة أو هنيّة، تصغير هنت وهي: القليل من الزّمان. انظر لسان العرب: 150/15.

[3]) لسان العرب: 137/14، مادة نشج.

علّة بعد علة، حرارة بعد حرارة، تسليط على الأبدان بعد تسليط، كلّ ذلك يتفرّع على أنّتها، صلوات الله عليها وسلامه.

البحث الثاني

موضوع البحث:

أسرار في معارف الحمد ونقطة الباء، من خلال

الخطبة الغرّاء لمولاتنا فاطمة الزّهراء (ع)

قالت مولاتنا فاطمة الزّهراء في خطبتها الغرّاء أمام المهاجرين والأنصار وغيرهم:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشّكر على ما ألهم، والثّناء بما قدّم، من عموم نعمٍ ابتداها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن والاها، جمّ عن الإحصاء عددها، ونأى الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشّكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالنّدب إلى أمثالها.

في خضمّ هذه البحار من المعارف والأنوار من الإعتقادات، كيف يبتدء من أراد الحديث بحقّ وإنصاف في تقييم البعد الحقيقي والفهم الواقعي لهذه الكلمات، واستيعاب هذه الرّموز والطّلاسم المعنوية التي لا يفقهها على حقيقتها حتى أرباب الفصاحة والبلاغة، نعم، لا يعرف حقيقة الكلام إلاّ هم، صلوات الله عليهم، هم أمراء

الكلام وهم أصوله، وعليهم وشجت عروقه، وتهدّلت أغصانه، إذن كلّ شيءٍ يعود إلى أمراء الكلام، ولا يفقه الحقيقة هذا البيان إلاّ من كان منهم، صلوات الله عليهم أجمعين، أو عرفهم حقّ معرفتهم.

وبما أنّ الحديث في مجال هذه الخطبة الغرّاء لمولاتنا فاطمة الزّهراء، صلوات الله عليها، متسلسلاً على نهج الموضوعية، نتناول أسرار هذه البيانات وفلسفة هذه الخطابات التي لو انفتح عليها البشر وعقل حقيقتها، لفازوا في الدّارين، وأصبحوا من المقرّبين، فهي عبارة عن جواهر ويواقيت غيبية نزلت على هذه الكرة الأرضية ليحيا من حيّ عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة.

بأي شيء افتتحت الزّهراء (ع) حديثها؟

براعة الإستهلال، افتتحت الكلام بحمد الله والثّناء عليه كما افتتح الحميد سبحانه كتابه المجيد بالحمد في سورة الفاتحة: **بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين** أرادت أن تجاري كلام الله في أنّ افتتاح الأشياء بعد الاقرار بالإسم الأعظم بسم الله، يكون بحمده والثّناء عليه.

ولا تخفى أسرار الافتتاح بالباء، وما كان تحت الباء من سرّ به ظهرت حقائق الباء وهو النّقطة، والنّقطة عبارة عن الإنسان الكامل، والحقيقة الوجودية المتمثّلة بأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) الذي قال: **وأنا النّقطة التي تحت الباء**[1] إشارة إلى أنّ تميّز هذا الحرف وهذا الوجود، حقيقة النّبيّ (ص) إنّما ظهرت بالنقطة، وظهور النّبوّة وحقيقة النّبوّة قد ظهرت بالولاية قال تعالى: (((وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالتهُ)))[2] يعني لا نبوّة، ولا رسالة، ولا سماوات، ولا ديانات ولا شيء في هذا الوجود، إلاّ بابلاغ حقيقة الولاية، فبلّغها، فإن لم تفعل فما كنت نبيّاً وما كنت رسولاً، وما كنت خاتماً للأنبياء والرّسل، وإن لم تفعل فما بلّغت شيئاً ممّا أمرك تعالى به.

---

[1]) ينابيع المودّة (للقندوزي الحنفي): 213/1، 212/3 (دار الأسوة ـ بيروت).

[2]) المائدة: 67.

إذاً قيمومة النّبوّة، وظهور حقيقة النّبيّ، إنّما هي بنصّ القرآن بالولي اليوم ((أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ))[1] لا ما كان من قبله وما مضى من الأيام وإنّما هذا اليوم، وهو يوم إبلاغ المصطفى الولاية للخلق، فإن لم يكن هذا اليوم ما كانت نبوّة، وما كانت رسالة.

إذاً حقيقة ظهور هذه الرّسالات، إنّما كان بالولاية، وهذا تفسير (وأنا النّقطة) يعني أنا المظهر لحقيقة الباء، لأنّ الباء لو تكتب على مستوى التّدوين، لا تقرأ بقراءة معينة، وإنّما تقرأ تاءً أو ثاءً، وما يظهر لها تعيّن إلاّ أن تضع تحتها النّقطة، فإذا كانت صار بسم الله، أي ظهر كلّ شيء بالولاية العلوية، الذي أظهر بشجاعته، وبقواه، وبمواقفه هذه الحقائق وهذه المعاني، ولذا سخّرت فاطمة (ع) نفسها للدفاع عن الولاية بعد الرّسول (ص) حتى لفظت آخر أنفاسها القدسية شهيدة في سبيل هذا المبدأ العظيم.

أهمّ شيء نستثمره من هذه الكنوز الفاطمية، هو عبارة عن معرفة أنّ فاطمة (ع) كانت حلقة الوصل بين النّبوّة والإمامة، وكانت المدافعة عن حياض الولاية فلولا وقفتها، لما تجلّت الولاية، ذرية بعضها من بعض، أنواراً كانوا بعرش الله محدقين، فلولا وقوف فاطمة ما ظهرت الولاية، ولولا الولاية ما ظهرت النّبوّة المحمّدية.

افتتحت الكلام بحمد الله، ومن هنا نبحث بشكل مختصر حول هذه العبارة (الحمد لله).

فما كتب قديماً وما كتب حديثاً حول كلمة الحمد، كان قاصراً عن درك

الحقائق في هذه العبارة.

---

[1]) المائدة: 3.

من هنا علينا أن نتأمّل بإمعان في كلّ كلمة تفوّهت بها فاطمة (ع)، وكلّ كلمة قد تحتاج إلى عمر كعمر أحدكم، وليس هناك أدنى مبالغة في هذا الكلام، ولا أدنى غلو في تعريف هذه الحقيقة على الإطلاق.

افتتحت الكلام بحمد الله ثمّ الثّناء عليه أثنت كما أثنى هو على نفسه، ثم الصّلاة على محمّد وآل محمّد، والتي أرسلت الصّلوات هي فاطمة (ع)، والذي يستقبلها فاطر فاطمة الذي اشتق اسمها وحقيقة وجودها من الفاطرية، وتنزل على من كان لها قلباً، وكانت له روحاً ـ يعني أبوها رسول الله (ص) ـ

وإنّها ـ أي، الصّلوات على محمّد وآل محمّد ـ موجّهة إلى فاطمة (ع) نفسها، لأنّها هي المعنية بآل محمد (ص)، وهنا يعجز الإنسان عن أن يبيّن فقه هذه الصّلوات الرّبانية وأسرارها (**اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد**)عبر قوله تبارك وتعالى: **إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يصلّون على النّبيّ**))[1] دوائر الحق، دائرة الوجوب المطلق، الإحاطة القيومية على التّكوين، الإحاطة القيومية على التّشريع هو الحيّ القيوم، وجميع دوائر اللاهوت والجبروت والملكوت، (**أيها الذين آمنوا**)في النّاسوت، كُلّهم مشغولون في كلّ آن، حتى ربّ العالمين يصلّون على النّبيّ محمّد وآل محمّد.

والصّلاة لا تكون مقبولة عند الحقّ من الخلق وأولي العزم والأنبياء والرّسل، إذا لم يضمّ إليها ذكر الآل، وهذا كلام الله تعالى نطق به رسوله المصطفى، لا تقبل صلاة إلاّ أن تكون بهذه الكيفية: (اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد)[2]

وفي رواية أنّ النّبيّ (ص) قال: لا تصلّوا عليّ الصّلاة البتراء. قالوا: وما

---

[1]) الأحزاب: 56.

[2]) أنظر الصّواعق المحرقة (لابن حجر): 146.

الصّلاة البتراء يا رسول الله؟ قال: تقولون: اللهمّ صلّ على محمّد وتسكتون، بل قولوا: اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّدوفاطمة من المعنيين بها.[1]

بدأت خطابها بباء البسملة، وهذا السّرّ الأوّل، ثمّ الحمد وهي مرتبة ليس فوقها مرتبة، وصاحب لواء الحمد سيتضح من هو، هذا التّسلسل الرّتبي في بداية خطابها ابتداء من العليّ الأعلى ومروراً برسول الله (ص) وهكذا بالدّوائر الأخرى بعد رسول الله (ص).

ثمّ بعد أن قالت هذهِ الكلمات، عاد القوم في بكائهم، أي رجع التّأثيرُ والتّسلّط التّام للحقيقة الفاطمية على الموجودات، وإذا بالقوم عادوا في بكائهم، فلمّا أمسكوا قالت الصّدّيقة الكبرى، محور التّكوين والتّشريع، وعلى معرفتها دارت القرون الأولى كما يقول صادق الآل، صلوات الله عليهم[2] قالت:**الحمد لله على ما أنعم، وله الشّكر على ما ألهم.**

ما المراد بالحمد؟ وما المراد بالشّكر؟

لو بحثنا في كتب اللّغة لم نجد تفسيراً شافياً لمثل هذه المفردات، إلاّ بهذه العبارة الواحدة:

الحمد: الشّكر، والشّكر: الثّناء، أكثر من هذا قد لا يفسر لك، لأنّ البيان من خلال الألفاظ إنّما هو بالألفاظ الأخرى المرادفة لا أكثر، والذي يسمّى شرح الكلمة كما يعبرون.

ما هي حقيقة الحمد؟ ومن هو الحامد؟ وما هي مرتبة الحمد؟ وكيف يكون الحامدون يوم يعرضون على ربّهم؟

---

[1] أنظر ينابيع المودّة: 37/1 و434/2، جواهر العقدين: 498، الصّواعق المحرقة: 146.

[2] أورد الشّيخ الطّوسي في أماليه: 668 المجلس 36ح1399. عن أبي بصير، عن الإمام الصادق (ع) قال: إنّ الله تعالى أمهر فاطمة (ع) ربع الدّنيا، أمهر الجنّة والنّار... وهي الصّديقة الكبرى وعلى معرفتها دارت القرون الأولى. عنه بحار الأنوار: 105/43.

كلّ ذلك تبيّنه فاطمة الزّهراء، صلوات الله عليها، بقولها: **الحمد لله على ما أنعم** أرادت أن تبيّن بهذه الكلمة أنّ الوجود وما فيه إنّما هو متوجّه وسائر وسالك إلى حقيقة الحمد، والحمد يكشف عن المقامات التي يعترف لها الخلق، لأنّ الحمد على ماذا؟ الحمد على النّعمة، وما المقصود بالنّعمة؟ **((لَتُسْأَلُنّ يَومَئِذٍ عَنِ النّعِيمِ))**[1].

روي عن محمّد بن السّائب الكلبي أنّه قال: لما قدم الصّادق (ع) العراق نزل الحيرة، فدخل عليه أبو حنيفة وسأله مسائل... إلى أن قال أبو حنيفة: أخبرني جعلت فداك عن قول الله عزَّ وجلَّ ((**ثمَّ لتسئلن يومئذٍ عن النّعيم**)) قال: فما هو عندك يا أبا حنيفة؟ قال: الأمن في السّرب وصحّة البدن والقوت الحاضر. فقال: يا أبا حنيفة، لئن وقفك الله وأوقفك يوم القيامة حتى يسألك عن كلّ أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولنَّ وقوفك! قال: فما النّعيم جعلت فداك؟ قال: النّعيم نحن، الذين أنقذ الله النّاس بنا من الضّلالة، وبصّرهم بنا من العمى، وعلّمهم بنا من الجهل[2]... وهذا أمر مبرهن عليه من القرآن الكريم، أنظر الزّيارة الجامعة: (أولياء النّعم) أي ما من نعمة إلاّ ومنشأ تلك النّعمة هم (عليهم السلام) أي لا يتحقق لك شيء، ولا يظهر لك شيء في الوجود، إذا لم توضع عليه بصمات الآل (عليهم السلام)، فبهم ظهرت النّعم، وبهم تجلّت هذه الحقائق الوجودية، لأنّهم أفضل خلق الله باجماع العقلاء إلاّ من شذّ من الجاحدين، ولذا تجد عبارة القرآن الكريم واضحة: **((وَمَا خَلَقْتَ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ))**[3]. فمن هو أفضل منهم عبادة؟ ومن هو أكثر منهم تقرّباً؟

إذاً ما خلق شيئاً إلاّ لهذه الغاية، وهي العبادة، وبالمحصّل هم المصداق الأتمّ للعبادة التّامّة، فكلّ شيء مخلوق لهم، وهذه حقيقة أقرّها حديث الكساء: **ما خلقت سماء مبنية**،

---

[1]) التّكاثر: 8.
[2]) تأويل الآيات الظّاهرة للاستر آبادي: 817 (جامعة مدرسين - قم).
[3]) الذّاريات: 56.

ولا أرضاً مدحية، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة إلا لأجل هؤلاء[1] الزّهراء تريد أن تؤكد هذه النّعمة.

فالحمد ذُكِر له معنىً لم أعثر عليه إلاّ في بعض الكتب التي أدّت حقيقة الحمد واقعاً، وإلاّ في كتب اللغة والتّفاسير لم يذكر تعريفاً واضحاً، جامعاً مانعاً.

حقيقة الحمد هي:**أن تبرز الفقر التّام في كمال هذه النّعم التي تجلّت بالإسم الأعظم**) تجلّت لنا بهم، فما كان الحامد إلاّ وهو يقرّ بالفضل للإسم الأعظم، ويقرّ ويعترف بتمامية هذه النّعم التي تجلّت بهم (عليهم السلام)، وهذه هي حقيقة الحمد.

وفرقه عن الشّكر، هو أنّ الشّكر على ما ألهم، بينما الحمد بذاته مطلوب، وإنّما تحمد الله يعني تقرّله وتعترف، وتبرز فقرك التّام قبال ما أنعم عليك من نعم، يعني الإعتراف ليس فقط مجرد ثناء. لاحظ في كتب اللّغة مثل ابن منظور وأمثاله عندما يأتي لبيان معنى الحمد يقول: الثّناء[2]، ما معنى الثّناء؟ هذا تعريف غير جامع مانع؛ لأنّه لابدّ أن يكون التعريف بالأوضح لا بالأخفى أو بالمساوي أو بالأعم أو بالأخص كما يعبر المناطقة، فعندما تقول: الحمد لله، تبرز اعترافك وإقرارك وإذعانك لتمامية النّعم النّازلة.

وسبوغ آلاء أسداهاالسّبوغ يعني: (النّعمة التّامّة التي لا تجد فيها فطوراً[3])

قال تعالى: ((**الّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمنِ مِن تَفاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَل تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمّ أرْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إليك البَصَرُ خَاسِئاً وَهوَ حَسِيرٌ**))[4]

فالآلاء هي: النّعم التّامّة الشّاملة. أسداها: يعني اعطاها، وآتاكم من كلّ ما سألتموه وحتى ما لم تسألوه، وأعطى من يعرفه ومن لا يعرفه تحنّناً منه ورحمة. فالشّكر إذاً يتعلق بما يرد

---

[1]) عوالم فاطمة الزّهراء (ع) للبحراني: 923/2.
[2]) لسان العرب: 314/3 (مادة حمد).
[3]) فطر الشّيء يفطره فطراً، يعني / شقّة. انظر لسان العرب: 285/10 (مادة فطر).
[4]) الملك: 3- 4.

عليك من صفات العلم والمعرفة وما إلى ذلك، أمّا الحمد فهو مطلوب على أُس النّعم، وهي النّعمة الكبرى الباطنة والظّاهرة، وإنّما قبل الخلق، وهذا المعنى جارٍ في القرآن الكريم، وهو مطلب دقيق، وكان هذا لغزاً في الوجود ومن الأسرار.

انظر سورة الرّحمن بدايتها أسرار وألغاز عجيبة ((الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))[1]. احتار المفسرون والمفكرون والعارفون بهذه الآيات، يقولون: إنّ التّسلسل الرّتبي يقتضي أن يخلق الله سبحانه الإنسان أوّلاً، ثمّ يعلّمه القرآن، فلماذا قدّم تعليم القرآن على خلق الإنسان؟ وهنا حارت العقول، وكلّ سلك وادياً، وأجابوا بإجابات عجيبة وغريبة.

ولكن انظر للمعرفة الحقّة في كلمة الزّهراء (ع)، تريد أن تبيّن أن نسق خطابها نسق سورة الرّحمن، ألفت نظركم إلى هذا الجواب، إنّ المراد هنا بتعليم القرآن هو: عبارة عن أنّ تكامل الإنسان وحقيقة وجوده هو بتعليم القرآن، يعني ا يكون الإنسان إنساناً في هذا العالم، ولا يكون له وجود إلاّ بتعليم القرآن، لذا كان آدم الأوّل معلّماً، ثمّ كان إنساناً، ولذا يقول القرآن: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا))[2] مثلاً إنّ الأستاذ متى يكون أستاذاً؟ عند التّعلم، فإذا تعلّم أُطلق عليه أستاذاً.

إذاً التّعليم يسبق التّسمية، وكذلك في ما نحن فيه من الآيات، يريد أن يقول بأنّ الإنسان ليس إنساناً، لربّما كان الإنسان أسوأ من الأنعام ((إِنْ هُمْ إِلا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا))[3] يعني حقيقة الإنسان الّتي تمحّضت بالقرآن الكريم لابدّ أن يكون إطلاق التّسمية عليه بعد تعلم القرآن، وأمّا قبل ذلك فهو ليس بإنسان؛ لأنّ الإنسان ليس لحماً وعظماً وشكلاً

---

[1]) الرّحمن: 1- 4.
[2]) البقرة: 31.
[3]) الفرقان: 44.

وما أشبه، بل هذه كُلّها مظاهر، انّما حقيقة الإنسان أن يكون عارفاً بكتاب الله، فإذا كان كذلك قدّم التّعليم على خلق الإنسان، وهذا أحسن بيان يصور لنا تفسير هذه الكلمات.

من عموم نعم إبتداها يعني قبل أن يخلق الإنسان هيّأ له النّعم، وما كانت هذه إلاّ لإنسانيته، وعبوديته وفنائه في ذات الله وآل الله، فقدّم لكم نعماً هو إبتداها قبل أن تكونوا، وهذا على غرار قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[1]، يعني ليس فقط علّمه القرآن، بل لابد أن يكون له شأن البيان لمعارف الحقّ.

وتمام منن والاها يعني منةً بعد منةٍ، إشراقة بعد إشراقة، رحمة بعد رحمة.

والاها: أي بمعنى، كانت متوالية دون انقطاع، وبلا استحقاق ولهذا ورد في الدّعاء عن الإمام الحُجّة (ع).

«**يا مبتدئاً بالنّعم قبل استحقاقها**[2] يعني قبل أن تستحق هذه النّعمة بعمل أو ما أشبه، الله جعل لك كلّ شيء، وأظهر لك كلّ شيء.

جمّ عن الإحصاء عددها: الجمّ بمعنى الكثير.

ونأى عن الجزاء أمدها: نأى: أي بعد، عن **الجزاء أمدها** يعني لا يمكن أن تجازى هذه النّعم.

وتفاوت عن الإدراك أبدها: هل يمكن للإنسان أن يبتدئ عدّ النّعم وينتهي عند درجة الإحصاء التّامّ؟

وندبهم لإستزادتها بالشّكر لإتصالها: ندبهم الحقّ بأن يزيد عليهم النّعمة تلو النّعمة بالشّكر لاتصالها، فلا تنقطع عنهم قال تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[3].

---

[1] الرحمن: 1- 4.
[2] انظر بحار الأنوار: 51 / 305، ضياء الصّالحين: 26.
[3] إبراهيم: 7.

واستحمد إلى الخلائق بإجزالها طلب من الخلائق الحمد.

بإجزالها أي باعطائها نعمة تلو النّعمة.

وثنى بالنّدب إلى أمثالها هي واضحة لما في النّدب منه تعالى من آثار في حياة الحامدين.

هذه الكلمات والخطابات الّتي أطلقتها بضعة المصطفى (ص) فاطمة، صلوات الله عليها، لتعظ القوم في أتمّ خطاب، حكت المصطفى به وحكاها، وهي الحُجّة بلا إشكال، وهي المعصومة بنصّ القرآن، فكلّ كلامها حُجّة على الخلائق ككلام رسول الله (ص).

نحن عندنا مصادر الإستنباط أربعة: الكتاب، والسّنّة، والإجماع، والعقل.

المراد بالسّنة: قول المعصوم وفعله وتقريره. وإنّ فاطمة صلوات الله عليها من المعصومين (عليهم السّلام)؛ فقولها وفعلها وتقريرها حُجّة بلا إشكال، ودليل هذا في كتاب الله تعالى إذ يقول عزّ من قائل ((**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**))[1].

[1]) الأحزاب: 33.

البحث الثالث

موضوع البحث: ـ

بحث في حقائق التّوحيد وأسرار الشّهادة بالوحدانية من خلال الخطبة الغرّاء لمولاتنا فاطمة الزّهراء، صلوات الله عليها، قالت مولاتنا الزّهراء، صلوات الله عليها، في خطبتها الغرّاء:

(وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، كلمةً جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التّفكر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته

هذه الكلمات تضمّنت معارف عجيبة، والمتأمل فيها يصل إلى أعماق الفكر التّوحيدي، على لسان الصّدّيقة الكبرى صلوات الله عليها.

هنا مقدّمة ينبغي الإشارة إليها قبل الورود في مطاوي البحث، المقدّمة هي: إنّ كلّ شيء مبتنٍ على الأصول والرّكائز والأسس، وبهذا يتضح متبنانا فيما يتعلّق بطرح الأبحاث العقائدية، والتّأكيد عليها تباعاً دون انقطاع وقدر المستطاع، إذاً،

الأساس لابدّ أن يستحكم، والقاعدة لابدّ أن تكون رصينة، حتّى يتمكّن الإنسان من طيّ مراحل التّفريع والبناء على ضوء تلك القواعد والأُسس.

لاحظوا في خطب الأئمّة وأمّ الأئمّة، صلوات الله عليهم أجمعين، أنّهم يفتتحون خطبهم، كلماتهم، وبياناتهم بالأسرار المتعلّقة بأصول الإعتقاد، ثمّ يعرّجون على التّفريعات وما يتعلق بالأحكام الإجتماعية والأخلاقية والإقتصادية وما إلى ذلك من شؤون الحياة العامّة والخاصّة.

وبهذا يتضح بأنّ الصّديقة الكبرى (ع) أرادت أن تبين أنّ المنشأ لابدّ أن يكون رصيناً، والقاعدة محكمة، حتّى يكون الإنسان عقائدياً بمعنى الكلمة، لا تحرّكه الرّياح، ولا تزلّ أقدامه العواصف التي تسحق هذا المكان وذاك البلد وتلك الجماعة وغيرها، لقد أرادت الصّدّيقة الزّهراء (ع) أن تفتتح الحديث بالعقائد وتؤكد عليها، وهذا الشّيء الذي تؤكده سلام الله عليها، يعتبر الآن من أهمّ المطالب في الخطبة الغرّاء لفاطمة الزّهراء (ع).

ولهذا ألفِتُ النّظر إلى جملة جملة، بل كلمة كلمة من هذه العبارات الهامّة، حتى يتضح على أيّ استناد عقلي، وعلى أيّ استناد وجداني، يكون الإنسان موحداً، وهذه العبارات أطلق عليها عبارة التّوحيد الخالص الذي نطقت به الصّدّيقة الكبرى (ع).

تأمّلوا كلمات مولانا أمير المؤمنين (ع)، في كتاب نهج البلاغة فإنّه صلوات الله عليه ابتدأ كلامه بالأمور الإعتقادية وما يتعلق بها. وانظروا إلى خطبتها (ع)، عمّ تتحدث فاطمة (ع) فيها؟ ثمّ انتقل إلى كتاب الله، وانظر أوّل نجوم ونزول القرآن الكريم، إنه كان في المجال الإعتقادي. لمّا كان المصطفى (ص) في مكّة، كانت الآيات النّازلة عبارة عن آيات الإعتقاد، آيات الأصول، فيما يرتبط بالتّوحيد الخالص، وبالنّبوة، والإمامة، والمعاد وغيرها من أصول الإعتقاد ما يتعلق بها من الأسرار والنّكات الإعتقادية، ثمّ لمّا هاجر النّبيّ (ص) إلى المدينة نزلت آيات الأحكام والتّفريعات والتّقنيات العامّة، المرتبطة بالصّلوات وغيرها، وانظر إلى زبور آل محمّد (الصّحيفة السّجادية) تجدها تبتدئ بحمد الله والثّناء عليه وتوحيده وتمام الإخلاص له، إذن فالأساس أوّلاً هو أصول الإعتقاد، ومن ثمّ تتوالى مفردات البناء، ولقد أرادت الزّهراء (ع) أن تجاري بكلماتها تراث الإسلام العظيم المتمثل بكتاب الله وسنّة رسوله

وأهل بيته (عليهم السلام)، كيف لا وهي سيّدة أهل البيت (عليهم السلام) وأصل عترة النّبيّ المصطفى (ص)، وهذا هو المطلب الذي أودّ أن أؤكّد عليه في هذا المجال.

قالت الزّهراء (ع): **وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له** في هذه الكلمة أبحاث عميقة ودقيقة، ولكن بالمقدار المتيسر نشير إلى أهم نقطة، وهي بيان المراد بكلمة التّشهّد.

لمّا نقول أشهد أن لا إله إلاّ الله، ما معنى كلمة أشهد؟ فهذه الكلمة مرّة تنطلق عن الله تعالى: ((**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُو وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ**[1]) ومرّة يكون نطق الشّهادة على لسان مظهر الشّهادة ومظهر التّوحيد، الأئمة صلوات الله عليهم، الذين بهم ـ كما في الزّيارة الرّجبية على لسان مولانا الحُجّة عجّل الله فرجه إذ يقول: **ظهر لا إله إلاّ أنت**[2]، بعليّ وآل عليّ ـ ظهرت كلمة لا إله إلاّ الله، ولولاهم ما عرف الله، ولولاهم ما عبدالله، كما يقول الإمام الصادق (ع): **بنا عرف الله وبنا عبد الله**[3].

إذاً الشّهادة تكون مرّة عن الله عزّ وجلّ: (شهد الله)، وأخرى تكون على لسان من ظهرت بهم كلمة التّوحيد، وأخرى على ألسنة غيرهم من الخلق، إذاً كلّ مفردة بحسب واقعها، وبحسب النّاطق بها.

ما معنى شهد الله؟

هذا يحتاج إلى بحث واسع وعريض، وكما أشرت وأؤكّد أنّ كلّ كلمة من كلمات فاطمة (ع) تحتاج إلى ليالٍ وأيام حتى نستحكم المراد، ونصل إلى عمق المطلوب.

إذاً لابدّ أن نلاحظ المراد من الشّهادة. (شهد الله)، المراد هنا بالشّهادة الموجودة في القرآن الكريم عبارة عن: البيان والإبراز والإظهار.

---

[1]) آل عمران: 18.

[2]) إقبال الأعمال: 145، (مؤسسة الأعلمي ـ بيروت).

[3]) بحار الأنوار: 260/26 (دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت).

يعني، أظهرت أنّه لا إله إلاّ الله، شهد: يعني، بيّن وأظهر وأبرز[1] والبيان يحتاج إلى واسطة، والإظهار يحتاج إلى مظهر، ومن هنا يتم الجمع بين حقيقة المعنى في الشّهادة لله عزّ وجلّ على نفسه بأنّه لا إله إلاّ هو، وبين ما ورد في الزّيارة الرّجبية على لسان مولانا المعصوم مولانا الحُجّة عجّل الله فرجه قال**حتى ظهر لا إله إلاّ أنت**إذاً قوله تعالى: (شهد الله) أي أظهر، فبأيّ شيء أظهر؟ اله لا يد له ولا شبه له بالجوارح العارضة على الخلائق، وليس له حواس، حاشا لله أن يوصف بوصف. إذاً بأي شيء أظهر؟ بأي شيء بيّن؟ مثلاً عندما تريد أن تكتب شيئاً كتابة معينة، تحتاج إلى ورقة وقلم حتى تُظهر المراد، إذاً لابدّ من واسطة، ولابدّ من آلة يفاض عليها، وبها يظهر الشّيء.

ومن هنا يتضح أنّ الشّهادة لله ظهرت بهم صلوات الله عليهم أجمعين، ولهذا يروي الكثير من علماء أهل السّنّة: إذا برز عليّ بن أبي طالب (ع)، ونظر إليه النّاظر قال: لا إله إلاّ الله، وإذا وجّه سيفه على هؤلاء الذين وقفوا أمامه، قالوا: لا إله إلاّ الله، وإذا نزل ميدان الوغى وساحات القتال ونظروا إليه صاحوا: لا إله إلاّ الله، وكما تقول الصّدّيقة الكبرى، صلوات الله عليها، في خطبتها:**قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ**أي عليّ (ع)**حتى يطأ صماخها بأخمصه ويُخمد**

لهبها بسيفه)فهذا الذي لا ينكفئ حتى يطأ بأخمص قدمه صماخ المشركين، إذا نظروا إليه صاحوا: لا إله إلاّ الله، وهذا يفسّر لك حقيقة أنّ ظهور التوحيد بهم صلوات الله عليهم.

ثمّ مرّة أخرى تكون الشّهادة على لسان الصّدّيقة (ع)، وهنا الشّهادة على غير المعنى الذي نحن عليه حتى نصل إلى المقصود من كلمتها التي تعكس آيات خزائن الغيب،

---

[1]) انظر لسان العرب: 222/7 (مادة شهد).

وآيات عرش الله، وآيات الإسم المخزون المكنون، لمّا تخطب وتقول: أشهد، الكلمة على لسان الزّهراء هذه المرّة، فما المراد من هذه الكلمة؟ نوضح الأمر برويّة ونقول:

إنّ المعنى الذي عليه سائر الخلق، أنا وأنت عندما نقول: أشهد، يقولون: المراد بها أعلم، ولهذا لا يصح أن نقول: أُقر أن لا إله إلاّ الله، مع أنّ الإقرار درجة عالية من الإذعان، ولا يجوز لك أن تقول: أعترف أن لا إله إلاّ الله، فلو أتى بها الإنسان خصوصاً في الصّلاة، بطلت الصّلاة، بل لابدّ من كلمة أشهد، ذلك لأنّ أشهد أعلى درجات الإدراك، وأعلى درجات التّصور والتّصديق لمضمون ما يرد بعد الشّهادة، والمضمون هو لا إله إلاّ الله.

وعليه فعبارة**الشّهادة**على ألسنتنا عبارة عن العلم والإدراك التّامّين، ندرك بوجداننا، بفطرتنا، بعقولنا، بواقعنا، أن لا إله إلاّ الله.

وأمّا على لسان الزّهراء (ع)، فهل أشهد بمعنى الإدراك؟ وهي فوق الإدراك. هل بمعنى التّصور؟ وهي فوق التّصور؛ لأنّ هؤلاء هم خاصّة خلق الله، وممّن اصطفاهم الله، فلابدّ أن يكونوا في أعلى درجات الكمال، إذاً كلمة أشهد على لسانها (عليها السلام) تعني أنّه لا إله إلاّ بنا، نحن الذين نشهد أن لا إله إلاّ الله، وهذه هي أتمّ المعاني التي يمكن إبرازها.

وأسفاً! لم تعط هذه الخطبة الغرّاء حقّها في تاريخنا، إذ أنّ هناك نوعاً من

التّسامح أو الغفلة أو التّساهل من كبيرنا وصغيرنا، رغم أنّ البعض قد تصدّى لشرحها وبيانها، ولكن لم يوفوا حقّها! إذ كلّ كلمة منها تحتاج إلى وقفة وتأمل، فمرّة أتعامل مع كلمة تفوّه بها إنسان عادي، ومرّة تكون الكلمة منطلقة من وليّ اصطفاه الله من دون الخلائق، فيكون لها عمق ويكون لها ميزان.

إذاً شهادتها عبارة عن أنّها هي المَظْهر للتوحيد، وأنّها هي الموحّد الواقعي، والموحّد الخالص لله، ولا تجد توحيداً صحيحاً إلاّ عند الإمامية الذين هم على الحقّ ومع الحقّ، ينطلقون منه وإليه، هذا هو الأمر الذي لا غبار عليه.

أشهد ـ كما تقول الزّهراء صلوات الله عليها ـ أنّ كلّ ما في حقيقة التّوحيد إنّما هي بنا قامت، وإلاّ كيف كانوا قبل الإسلام، وفي أي وضع كانوا من عبادات ومن صنميات ومن جاهليات؟ تصفّح أحوال العرب كيف كانوا قبل الإسلام؟ القرآن يبيّن ـ وكفى به كلاماً تامّاً ـ ((**وَإِذا المَوؤدَةُ سُئِلَت * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَت**))[1] القرآن يبيّن لك مظهراً من المظاهر لا على التّعيين لكنه على أساس التّمثيل، حيث إنّ قتل النّفس وهي في بواكير حياتها يمثل منتهى الصّنمية ومظهراً من مظاهر التّخلّف والجاهلية.

ثمّ قالت (ع)**وحده لا شريك له** هذه الكلمة تأكيد على أنّ التوحيد لابدّ أن يؤكّد بوحده لا شريك له، وهذه إشارة إلى الذّات الأقدس لا يمكن أن تكون لها شراكة على الإطلاق.

ثمّ قالت كلمة الشّهادة التّوحيد**كلمة جعل الإخلاص تأويلها** هنا تقف العقول حيارى في بيان معنى جعل الإخلاص تأويلها.

من هذه الكلمة ننطلق إلى بحث عقائدي هامّ، فهذه الكلمة على غرار ما ورد من آيات في القرآن الكريم قال تعالى: ((**وَمَا يُؤمِنُ أَكثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**))[2] يعني أن شريحة المؤمنين الذين هم الأغلبية من المؤمنين هم على الشّرك. وهناك مشكلة في نفوسهم، كيف يؤمنون، وكيف يشركون؟ ومن هنا يتضح المراد من خلال الكلمة العظيمة لمولاتنا فاطمة الزّهراء (ع).

إذ النّاس في قضية التّوحيد على اتجاهات وفرق، حتى أنّ الإتجاه الأكبر الموجود بين المسلمين ليس عل التّوحيد الخالص، لأنّه ينظر إلى الله تارة موصوفاً بالحركة، وأخرى

---

[1]) التكوير: 8و9.
[2]) يوسف: 106.

موصوفاً بالنّزول كما في مرويات كتب علماء العامّة، فقد جاء في بعضها: إنّ الله ينزل إلى السّماء الدّنيا[1]

إذاً هناك وصف بالحركة ووصف بالنّزول، بالكيفية مثل: يطأ برجله نار جهنم، فتقول: قط قط كما في البخاري[2] وهذا خلاف التّوحيد الخالص. الزّهراء (ع) تريد أن تبيّن أنّ التّوحيد الخالص عندنا وعند من اتبعنا دون غيرهم، ونحن معاشر الإمامية نفتخر لأنّنا سلكنا طريقهم طريق الحقّ.

جعل الإخلاص تأويلها تفسير ذلك على لسان الإمام علي (ع) في أوّل خطبة له؛ لأنّ كلماتهم بعضها من بعض، وكُلّهم أنوار، إذا نطق أوّلهم نطق آخرهم، وهكذا بالعكس، ذرية بعضها من بعض، فما تريد الزّهراء (ع) أن تقوله هو ما جاء على لسان أمير المؤمنين (ع) حيث يقول: أوّل الدّين معرفته، وكمال معرفته التّصديق به، وكمال التّصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ

موصوف أنّه غير الصّفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال علام فقد أخلّى منه[3]

هذا ما تريد قوله الزّهراء (ع) ـ نفي كلّ هذه الصّفات عنه ـ لأنّ الصّفة حادثة، ولأنّ الصّفة غير الموصوف، فعندما نقول إنّ زيداً قائم، القيام شيء، وزيد شيء آخر، وإن كان مندكاً معه، لأنّ القيام والعلم وما إلى ذلك صفات تعرض على ذات الإنسان، فإذا كانت الصّفات عارضة لا يمكن أن يوصف بها الله سبحانه.

---

[1]) انظر: صحيح البخاري: 88/8 كتاب الدّعوات، صحيح مسلم: 37/6 باب صلاة اللّيل، مسند أحمد بن حنبل: 539/6 ح10317، سنن ابن ماجة: 161/2 ح1366، مسند أبي يعلى الموصلي: 263/6 ح7371 و363/5 ح6127، موطّأ مالك: 207/1 باب ما جاء في الدّعاء، كنز العمال: 467/3 ح7463 وغيرها.

[2]) صحيح البخاري: 168/8 (دار احياء التّراث العربي ـ بيروت).

[3]) نهج البلاغة: 13و14 (صبحي الصّالح ـ دار الأسوة).

إذاً الله الذّات الأقدس، لا يوصف بوصف على الإطلاق، وإنّما يعرف بمظاهره وتراجمة وحيه والسّنة إرادته وآثاره من الخلائق، فبهم تكون المؤشرات إليه جلّ وعلا.

إذاً الزّهراء (ع) تريد أن تقول: وكمال الإخلاص، أن ننفي الصّفة **كلمةً جعل الإخلاص تأويلها** أي نفي الصّفات عنه تعالى. تأويلها: يعني مآل التّوحيد له نفي الصّفة عن الله عزّ وجلّ، وما تراه من أوصاف القرآن الكريم إنّما هي بلحاظ أوليائه وسفرائه الذين اصطفاهم على خلائقه، وأما هو سبحانه فهو فوق الصّفات وفوق المؤشرات والإشارات، هذه كُلّها عبارات، فهل بالعبارات تريد معرفة الله؟! الرّوح الآن لا تعرف كنهها وحقيقتها، قال تعالى: ((**يَسئَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحِ مِن أَمرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلمِ إلاَّ قَلِيلاً**))[1] وكذلك كنه العقل، ولذلك لم يتوصل الفارابي وامثاله إلى معرفة كنه الشّيء، واترفوا بعجزهم، هذا أمر فيه الطّلب مردود، والباب مسدود تماماً، فالإنسان يجب أن يرجع إلى أهل العلم ليعرف الحقّ، قال تعالى: ((**ردّوه إلى الرّسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**))[2].

وضمن القلوب موصولها، وأنار في التّفكر معقولها:

التّوحيد على قسمين: -

1- توحيد فطري.

2- توحيد نظري.

أمّا التّوحيد الفطري: فهو ما فطر عليه الإنسان في معرفة الله، وأنّه لا إله إلاّ هو، لكن الحجب نتيجة الأفكار الفاسدة، والمعتقدات الباطلة، فهذه هي التي تضع الغشاوة، وتجعل الإنسان يشتبه في تعيين الأشياء، وإلاّ فهو موحّد بذاته وفطرته.

---

[1]) الإسراء: 85.

[2]) النّساء: 83.

وضمن القلوب أي قلوب الخلائق **موصولها** بمعنى أنّ ما من قلب إلاّ وهو بذاته يعترف ويتوصّل إلى حقيقة أن لا إله إلاّ الله.

لذلك إذا وقع في بحر أو ما أشبه يصيح: لا إله إلاّ الله حتى لو كان مشركاً تراه يعترف بالتّوحيد، وهذا ينطلق من باب التّوحيد الفطري الذي تشير إليه الزّهراء (ع).

وضمن القلوب، والمراد هنا بتضمين القلوب، يعني، ذات ووجدان وفطرة الإنسان، ضمنها الوصول إلى إله إلاّ الله.

وأنا في التّفكّر معقولها هذا الذي اصطلحنا عليه بالتّوحيد النّظري بمعنى أنّ العقول لو توجّهت إلى الله عزّوجلّ، ورأت آثاره وعظمته في كلّ دقائق الكون، وتفكّرت في كلّ أشياء الكون، من الذّرّة وحقيقة الذّرّة لتوصّلت إلى حقيقة التّوحيد، والعلماء إلى الآن عندما يعرّفون الذّرّة فإنّهم يقولون: إنّها تتكون من نواة تحتوي على بروتونات ونيوترونات وتدور حولها الإلكترونات، فعندما يسأل عن حقيقة هذه الإلكترونات مثلاً، لا تجد من يعرّف حقيقتها، ربما يعرّفونها تعريفاً

لفظياً فقط. إنّها حقائق مجهولة، فكيف بالمجرات فإنّ حول هذه الشّمس شموساً، وبين كلّ شمس وشمس ما شاء الله من المسافة، فالكون في التّصور والتّعقل، وأنت تريد معرفة الله بالألفاظ؟!

الممتنع من الأبصار رؤيته هذا التّدرّج العجيب الدّقيق؟!

ابتدأت بالبصر **الممتنع من الأبصار رؤيته** ثمّ ذكرت الألسن **ومن الألسن صفته**، ثمّ الأوهام **ومن الأوهام كيفيته** معنى ذلك أنّ البصر له بُعْد معين محدود، ثمّ تنتقل إلى ما هو أوسع من البصر وهو اللّسان، لأنّ اللّسان قادر على وصف ما يراه وما لا يراه، ثمّ انتقلت إلى الأبعد وهي الأوهام التي بها تحصل إدراك الجزئيات، حتى بهذا المقدار من الوهم والخيال لا يمكنك أن تصف الله سبحانه، إذ كُلّما ميزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه، فهو

مردود عليكم مخلوق مثلكم، يعني أي شيء تتصور بخصوص ذاته تعالى فهو شرك، الزّهراء (ع) تريد أن تقول: ـ قف بين يدي الله وأنت منقطع، ومصدّق بأنّ هناك قوّة تحيط بكلّ شيء، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

لماذا؟ لانّ الإنسان قد يتصور أنّ الله يوجد في الجهة، أو أنّ له يداً يرفعها، أو غير ذلك من الأشياء تعالى الله عن كلّ شيء، فهو سبحانه أقرب إلينا ن كلّ شيء، عظمة الله لا يمكن أن يدركها ويتصورها عقلك. حار العلماء في معرفة أسرار النّجوم والكواكب، وأنت تريد معرفة من أحاط بكلّ شيء؟!

الزّهراء، صلوات الله عليها، تخاطب الخلق، تقول لهم هذه عقائدكم، وهذه كُلّها تحمل بيانات تعريضية، يعني تريد أن تقول إنّ أكثركم يشرك، وهو ليس على التّوحيد الخالص.

الممتنع من الأبصار رؤيته ومن الألسن صفتهنا تملك من قدرة

فلن تصل باللّسان إلى صفته سبحانه، فكلّ ما تملكه من طاقات وقدرات، فهي محدودة، والإنسان يبقى محدوداً في كلّ شيء، فكيف يحيط المحدود باللامحدود؟!

الإنسان متناهٍ، فكيف يحيط المتناهي باللامتناهي؟! لا يمكن أن يصل إلى تلكم القدرة التي حار فيها كلّ شيء، فسلّم لها وأذعن ﴿وَإِن مِّن شَيءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2].

ومن الأوهام كيفيته: الأوهام: هي القدرة التّخيلية، تريد أن تقول (عليها السلام) حتى بهذا المقدار من القدرة التّخيلية لا يمكن أن تصف الله، ولا أن تصل إلى معرفة ذاته، تعالى الله عمّا يصفون، فما عليك إلا أن تستسلم إلى الحقّ.

---

[1]) يوسف: 106.

[2]) الإسراء: 44.

ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلهاتي لا توجد تشكيلة سابقة، وعلى ضوء تلك التّشكيلة وعلى حذوها يصنع، وإنّما كوّنها بقدرته وذرأها بمشيئته.

أسرار الخطبة الغرّاء.....46

البحث الرّابع

أسرار في أبحاث العقيدة الهامّة وهو بحث المشيئة بمنظار الأخبار الصّحيحة والتّحليل الدّقيق.

(((إنّ في ذَلِكَ لِذكرَى لِمَن كَان لَهُ قَلْبٌ أَو أَلقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1]

قالت فاطمة، صلوات الله وسلامه عليها، في خطبتها الغرّاء أمام المهاجرين والأنصار وغيرهم: **ابتدع الأشياء لا من شيءٍ كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته.**

من أهمّ الأبحاث الإعتقادية والتي لها تمام الدّخل في صميم تجسيد الإعتقاد لدى الأفراد، هذا المطلب وهو بحث المشيئة.

ألفت النّظر لأهمية هذا المعتقد، لأنّ المطالب الإعتقادية إذا وردت على لسان المعصوم (عليه السلام) تكون لها تمام الأهمية، وتستحق تمام الإصغاء، لأنّ المتحدث والمتكلّم والخطيب هنا المعصوم، ذلك الإنسان الكامل، ولهذا نعرّج إلى رياض المعرفة بعد طيّ أمرين هامّين:

---

[1]) سورة ق: 37.

الأوّل:قالت (عليها السلام)**ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها**هذا هو سرّ عظمة الخالق، إنّه أنشأ الأشياء لا لصورة قبلية، ولا مثال سابق، إنّما أنشأها بعظمته، وكوّنها بقدرته من غير احتذاء أمثلة، يعني: لم يقتد ولم يتّبع مثالاً أو صورة أو شكلاً أو هيئةً في تكوين الأشياء، وإنّما كوّنها من غير سابق لتلك الصّورة، من هنا ندرك العظمة، ويتميّز الخالق جلّ وعلا عن غيره من الصّنّاع ومن الفاعلين والمقتدرين في إيجاد الأشياء، بأنه يوجد الشّيء لا من شيء كان قبله، ولا على مثال ليحتذى على ضوئه، إنّ هؤلاء اي ـ ما سوى الله تعالى ـ إنّما يشكّلون الأشياء على صورة سابقة. على سبيل المثال، لمّا ابتركت الطّائرة واستحدثت، كانت على مثال الطّير، حيث نظر المخترع إلى هذا الطّائر، واستطاع على ضوء ذلك أن يوجد هذا الحديد المكوّن من هذه الهيئة، وبهذه الكيفية المسمّاة بالطّائرة.

2- **الثّاني:** هو عبارة عن المشيئة، وهذا الأمر احتار الكثير فيه، ولكن على أولي الألباب وأصحاب القلوب سهل يسير، وبإذن الله سوف ندخل في هذا المجال لنص إلى نتيجة هامّة، يتمّ على ضوئها تصحيح الكثير من الإعتقادات الخاطئة عند الإنسان، والتّخرّصات والتّوهّمات في قضية الصّنع والإيجاد عبر المشيئة، وهذا من الأبحاث التي لو استوعبها الإنسان لإستطاع أن يصل إلى أصح الإعتقادات، ويحلّ بذلك جملة من المعضلات والمشكلات، ويخرج من قاع الطّبيعة والظّلمات، لأنّ الإنسان ما لم يفهم الحقائق يبقى كالبهيمة التي تقع في الوحل، والتي لا تقدر على حركة دائرية على نفسها، والمفترض أن يخرج الإنسان من هذهِ الدّائرة إلى الدّائرة الأعمق والأهمّ.

إذاً هذا البحث ينبغي أن نلاحظه بدقّة:

لقد تعرّض جهابذة علمائنا لبحث المشيئة، وهو مفترق طرق في الإعتقادات، ويترتب عليه أصول اعتقادية هامّة.

قالت الزّهراء (ع): **كوّنها بقدرته** (أي الأشياء التي لم تكن على مثال سابق، ولا على صورة سابقة) **وذرأها بمشيئته**، الذّرأ بمعنى الخلق، وذرأها أي خلقها بمشيئته، أي الأشياء انّما كانت بالمشيئة، فما المراد بالمشيئة؟

هذا مطلب عميق، يحتاج إلى الكثير من التّأمّل والإمعان، فالإنسان إذا تمسك بعراهم صلوات عليه، ورجع إلى كلامهم فإن العُقد تحل بهم سواء في الفكر أو العلم أو الفلسفة أو الحياة، بل وفي كلّ شيء.

الزّهراء (ع) تلقي الأصول والمعارف والإعتقادات التي لا تجد لها نظيراً إلاّ فيهم، حتى الأديان السّماوية السّابقة كانت تقتصر على بعض الأصول والإشارات، بينما الزّهراء (س) إنّما بقرت الحقائق الإعتقادية، وشقّتها لتضعها بين أيديكم، لتُخرج النّاس حينئذٍ من ظلمة العمى والجهل في الإعتقادات إلى النّور المحمّدي المطلق.

تمعّن كلام الصادق، صلوات الله عليه في المشيئة. قال:

خلق الله المشيئة بنفسها، ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة[1]، وضمّها إلى كلمة الزّهراء (س) حيث قالت: **كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته** تستنتج من ذلك أنّهم نور واحد.

ما المقصود بالمشيئة؟

المشيئة لها بيانات عديدة وكثيرة منها:

لغوية، ومنها حكمية، ومنها فلسفية.

أولاً: أما المعنى اللّغوي فيقول الرّاغب في المفردات: يراد بالمشيئة: الإرادة، ثمّ استشهد بمجموعة من الآيات في إثبات أنّ المراد بالمشيئة الإرادة

[1] - بحار الأنوار: 4 / 145.

(((**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهَ ربُّ العَالَمِينَ**)))[1] يعني لا تتحقق لكم إرادة إلاّ بعد إرادة الله سبحانه وتعالى، قال: المشيئة والإرادة سواء، يعني بمعنى واحد وإنّما الإختلاف في اللّفظ، وأمّا المفهوم والمعنى فواحد، ثمّ ذكر قولاً مفاده: أنّ المشيئة هي التي تقتضي الإيجاد[2].

المشيئة هي التي يتحقق بها الإيجاد، وهذا رجوع لكلام الزّهراء (س)، لأنّهم رأوا بالنتيجة أنّه إذا كانت الإرادة مخلوقة، فحينئذٍ لا يمكن أن تكون من صفات الذّات، لأنّ الله جلّ وعلا عن الشّيء المخلوق.

فهل يمكن أن نجعل الإرادة المخلوقة من صفات الذّات؟ حاشا لله ذلك لأنّ الله تعالى لا يتركب من شيء مخلوق، جلّ وعلا عن كلّ الصّفات الحادثة بما فيها الإرادة والمشيئة، إذاً المعنى اللّغوي يرجع في حقيقة الأمر إلى مراد أهل البيت، هذا أولاً.

ثانياً: الحكماء والشّراح ـ سواء كان ذلك على الكافي الشريف أو الشّرّاح لخطبة الزّهراء، صلوات الله عليها ـ لهم آراء وتعاريف عديدة للمشيئة.

قال بعضهم: إنّ المراد بالمشيئة: عبارة عن اللّوح الموجود عند الله تعالى، وإنّ الأشياء انّما كانت مدوّنة باللّوح، فوجدت الأشياء بمعنى ما رُقم وما سُجّل وما كُتب في اللّوح يفسر المراد بالمشيئة التي خلقت بنفسها، ومن ثمّ خلقت الأشياء بها.

لكن هذا الرّأي يبدو لنا أنّه غير تامّ، لأنّ هناك فعلية في إيجاد الأشياء، يعني كأنّ المشيئة بحسب أقوالهم هذه لها دور الصّنع، واللّوح كتاب يحمل ألفاظاً والألفاظ لا توجد الأشياء، فلابدّ إذاً أن يكون المراد بالمشيئة شيئاً وجوديّاً، وهذا الشيء الوجودي به أفيض على الأشياء الوجود، وليس عبارة عن لوح مكتوب

---

[1] ـ التّكوير: 29.

[2] ـ مفردات الرّاغب: 471 (دار القلم ـ بيروت).

عليه كلمات، حتى نقول بأنّ المراد هنا بالمشيئة عبارة عن اللّوح، هذا المعنى لا يساعد عليه اللّفظ.

وقال البعض الآخر: المراد بالمشيئة: الإرادة النّفسانية، وأفاعيل النّفس، وهي عبارة عمّا يوجد بها، وهذا أغرب من الأوّل، لأنّ المشيئة خلقها الله تعالى، وخلق الأشياء بها. كما يقول الإمام الصادق (ع): خلق المشيئة بنفسها وخلق الأشياء بالمشيئة [1] فالإمام (ع) يريد أن يبين قاعدة تكوينية في مبدأ الخلق، وفي شروع عالم الإمكاني، يريد أن يبيّن ميزاناً، وحقيقة بدء وشروع هذا الوجود الإمكاني، ليس قضية عبارة أنا أريد، والأفاعيل مخلوقة لإرادة، وقبيل هذا ممّا يقوله بعض الفلاسفة، وهذا أيضاً بما سيتبيّن أنّه مردود.

لاحظ النّص جيداً، وسيتضح المراد من المشيئة، يقول الصادق (ع): خلق المشيئة بنفسها وخلق الأشياء بالمشيئة. يعني الله خلقها دون توسط سبب، وإنّما خلقها بالمباشرة، لأنّ هناك أشياء بالواسطة، فالله خلق الأشياء بالوسائط، مثلاً آدم خلق من تراب، يعني جعل التّراب واسطة في خلق آدم، وفي تعبير آخر كما قال تعالى: (((خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلصَالٍ كَالفخَّارِ)))[2]. المراد بالصّلصال؟ هو: الطّين الذي له صوت قوي، لمّا نضرب على الطّين اليابس الصّلب يعطي صوتاً يصلّ، والمراد بـ(يصلّ): أي يعطي صوتاً. خلق الإنسان بواسطة هذه المادّة، وهو يعود إلى معنى التّراب أيضاً.

وفي آية أخرى خلق الإنسان (((مِن طِينٍ لازِبٍ))) [3] ما المراد باللّازب؟ يعني، اللاّصق الذي يلزق ويصلب فيما بعد، وهو يعود إلى المعنى الأوّل أيضاً.

إذاً هناك وسائط لخلق الإنسان وغيره، أمّا المشيئة فإنّ الإمام (ع) يقول

---

[1] - بحار الأنوار: 4 / 145.
[2] - الرّحمن: 14.
[3] - الصّافات: 11.

إنّها المخلوق الأوّل، يعني أوّل ما خلق الله المشيئة، وتقول الزّهراء: **ذرأها بمشيئته** ، أي خلقها بالمشيئة. إذاً المشيئة بذاتها مخلوقة لله دون توسط واسطة، أمّا الأشياء فقد خلقت بها فيما بعد، أي بالمشيئة.

إذاً كانت المشيئة أوّل صادر عن الله، أوّل مخلوق عنه جلّ وعلا، وأوّل ما كان في عالم الإمكان هو المشيئة، فما المراد بالمشيئة التي كانت بها الأشياء؟ يعني أنّ الله تعالى عزّ وجلّ إذا أراد أن تكون الأشياء، فإنّما تكون بها. لماذا بها، والله أمره كن فيكون؟

الله خلق آدم من تراب أو صلصال أو طين لازب كيف؟ وهو تعالى، لا يحتاج إلى تراب ولا إلى صلصال ولا إلى طين لازب؟ جواب ذلك: أنّه سبحانه أبى أن تجري الأمور إلاّ بأسبابها، وجعل الأشياء كُلّها بسبب المشيئة، هذا الذي أودّ أن أُؤكد عليه إذاً فالله تعالى خلق المشيئة التي بها كانت الأشياء.

هنا أمران يجب بينهما فيما يختصّ بصفاته تعالى، وهما:

١) الصّفات الذاتية: يعني الصّفات المخصوصة بالله تعالى لا يمكن سلبها عنه تعالى كالعلم والقدرة والحياة، فلا يمكن أن نقول: الله علم ولم يعلم، إذ لا يمكن سلب العلم عن الذّات على الإطلاق، إذاً الله عالم في كلّ الاحوال هذه من الصّفات الذاتية. وكذلك القدرة. الله قادر، لا يمكن أن نقول ليس بقادر، قدر ولم يقدر، وهذه أيضاً من الصّفات الذاتية، وكذا الحياة. الله حيّ، لا يمكن ولا يصح أن نقول إنّه ليس بحيّ، إذن هذه من الصّفات الذاتية.

٢) الصّفات الفعلية: هي التي يمكن سلبها. عن الذات.

مثلاً الرّازقية، الخالقية، الله يرزق ويمكن أن لا يرزق، يعني يرزق فلاناً ولم يرزق فلاناً، خلق خلقاً، ولم يخلق بعد كثيراً من الخلق، وهكذا.

إذاً هذه الصّفات صفات الفعل، ولا يصح أن تنسب إلى الذّات، لأنّ الذّات

ليس فيها شيء سلبي، لا يوجد فيها عجز، كله علم، كلّه قدرة، كلّه حياة، أمّا الصفا الفعل فهي للمشيئة، هي التي بها يكون الخلق، وبها لا يكون الخلق، بها يكون الرّزق، وبها لا يكون الرّزق، وبها تكون الافعال، وبها لا تكون الأفعال، بها يراد الخير، وبها يسلب الخير، بها يتحقق كلّ شيء.

أمّا قولنا الله عالم وليس بعالم، قادر وليس بقادر، فحاشا لله، هذا السّلب لا يمكن أن يتصور في الذّات، وإنّما يتصور في الفعل، الفعل المراد هو المشيئة، والمشيئة هي أوّل ما خلق الله تعالى، وأوّل ما خلقه هي الحقيقة المحمّدية.

خلق الله المشيئة بنفسها، اخترع نورهم من نوره، لم يتوسط نورهم نور، ولم يتوسط سبب لنورهم في خلق أنوارهم، خلق الله الأشياء بهم، بالمشيئة، فالمشيئة إذاً أصبح معناها: حقائق وجودية وهي أوّل صادر في عالم الإمكان، فإذا لم تفسر هذا التفسير، سوف تنسب إلى الله الجهل، وتنسب إلى الله الفعل والآلة، وحاشا لله أن تكون له آلة أويد أو ما أشبه، إنّما يجري الأمور بهم، فهم ترجمان وحيه، والسّنة إرادته، وهم الواسطة في الإفاضة على جميع الخلائق، وهذا المعنى لم يذكره إلاّ القليل، ولم ينتبه له إلاّ من كان له مسكة وفهم. وكذا ذكره بعض علماء العامّة فإنهم عقدوا أبواباً، مضمونها: أنّ أوّل نور وأوّل موجود وأوّل صادر هو محمّد وآل محمّد، ثمّ بعد ذلك صارت بهم الأنوار والموجودات[1].

والذي نعبر عنه عندنا بالذّات الأقدس جلّ وعلا عن مباشرة الأشياء، أي جعل الله تعالى الواسطة، أو قل السّبب في إيجاد الخلق، هو المشيئة، كما جعل التّراب سبباً لخلق آدم، إذاً عندنا الذّات الأقدس، وعندنا المشيئة، وعندنا الأشياء، فما كانت الأشياء إلاّ بالمشيئة، كما قالت الصّدّيقة الكبرى فاطمة، صلوات الله

[1] - انظر فردوس الأخبار للديلمي: 2 / 178 ح 4884 (ط 1. دار الفكر - بيروت). وكفاية الطالب للكنجي الشّافعي: 314 - 316، ينابيع المودّة للقندوزي: 378/3 وغيرها.

عليها: كونها بقدرته وذرأها بمشيئته.

تريد أن تقول: انّ الواسطة في خلقكم وإيجاد كم أيّها المهاجرون أيّها الأنصار، أيّها الخلق، كلّ وجودكم إنّما بالمشيئة، والمشيئة هي النّور الأوّل، والصّادر الأوّل، هي أنوارنا، فأنتم بنا صرتم من الظّلمات إلى النّور، وخرجتم من العدم إلى الوجود.

وهذا من المطالب العميقة وعلى أهل الفكر والدّقّة أن يتوجهوا إليها، بقلوبهم بعقولهم بكلّ ما يملكون. إنّنا على ثقة من هذه المطالب، فإذا لم تصبح هذه الإعتقادات راسخة فقد يجعل الإنسان لله شريكاً، أو قد يتوهم توهمات باطلة حول الخالق عزّ وجلّ، وهو الأوّل وهو الخالق، لكن ظهر خلقه بهم (عليهم السلام).

وليكن البحث موضوعياً نضرب مثالاً لذلك: لو افترضنا أنّه عندنا سلك كهربائي، وهذا السّلك الكهربائي يحتوي على طاقة غائبة، حتّى أنّ المكتشف لا يعرف حقيقة ما في هذا السّلك، هذه الحقيقة الغائبة التي لم تعرف من قبل، كيف عرفناها وكيف ظهرت في الأسلاك؟

المسلّم أنّنا عرفنا ذلك عبر المصباح، المصباح هو الذي كان الواسطة في الإشراق، الواسطة في الإنارة، الواسطة في الإفاضة. إذاً هنا لابدّ أن نتصور شيئاً لا يدرك وهو الله تعالى، وهذا التّصور ليس لنفس الشّيء؛ لأنّ الله تعالى لا تدركه الأبصار، كما قالت الصّدّيقة الكبرى: **الممتنع من الأبصار رؤيته**، لاحظ القرآن قال تعالى: (((**لا تُدرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدرِكُ الأبصَارَ وَهُوَ اللّطِيفُ الخَبِيرُ**)))[1].

الطّاقة الغائبة إنّما نعرفها بالمصباح، والله تعالى خلق المشيئة، وجعلها الواسطة في الخلق، فما يقابل المصباح هناك، هو محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين، مصابيح الهداية، وأنوار المشيئة الأولى.

---

[1] - الأنعام: 103.

مثال ثانٍ. لو كان عندك نار وقطعة حديد، فعندما تسلّط النّار على قطعة الحديد، تصبح قطعة الحديد محرقة، أي تنتقل إليها صفة الإحراق، من الذي جعل قطعة الحديد محرقة؟ مع أنّ هذا الإحراق صفة النّار، فأين تحولت؟ تحولت إلى قطعة الحديد فصارت مظهر صفة الإحراق، مظهر للنار في الإحراق، فكذا أهل البيت (عليهم السلام)، هم مظهر جلال الله تعالى، إنّما ظهر بخلقه، ظهر بآثاره، كظهور الإحراق والحرارة في قطعة الحديد، وصارت القطعة هي الحارقة، وهي التي تُشعل، فكذلك أهل البيت (عليهم السلام)، وهذا مثال وجداني، إذ أنّ النار تبقى هي النّار، وقطعة الحديد تبقى هي الحديد ولا نقول: أنّهم هم الخالقون، الله هو الذي يخلق بهم، يرزق بهم، لأنّ الله تعالى ليس له يد، إنّما يصنع الأشياء بهم ولهذا ورد عن الإمام أمير المؤمنين (ع): فإنّا صنائع ربّنا، والنّاس بعد صنائع لنا[1]. لا لعجز في الله سبحانه وتعالى وإنّما أبى الله إلاّ أن تجري الأمور بأسبابها.

مثال ثالث: حينما تقول: زيد قائم، فهنا عندنا شيئان، شيء اسمه زيد، وشيء اسمه قائم، زيد كذات غير القائم؛ لأنّ القيام وعدم القيام من الأعراض، فقد يكون قائماً، وقد لا يكون قائماً، فلمّا تقول: زيد قائم، إنّما مرادك أنّ زيداً ليس كذات، وإنما زيد الموصوف بهذا الفعل، الفعل هو عبارة عن القيام، فما كان زيد إلاّ بالقيام، الآن أتعامل معك مع وجهك مع جسمك مع محيّاك، أنظر إليك وتنظر إليّ، ليس المقصود هذه التّقاسيم الخارجية، بل الذّات التي ظهرت بها.

فتعرف قدرتي كذات من خلال اليد، وتعرف جمالي من خلال الوجه، فكذلك قال تعالى: (((**ولله المَثَلُ الأَعلى**)))[2] إنّ الله عزّ وجلّ إنّما ظهر جماله وظهر جلاله بوجه محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم.

ثمّ قالت الزّهراء، صلوات الله عليها: **ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها،**

---

[1] - نهج البلاغة: 528 كتاب 28 (صبحي صالح).
[2] - النّحل: 60.

وأنشأها بلا احتذاء أمثلةٍ أمتثلها، كوّنها بقدرته، أي بواسطة القدرة وبسبب القدرة، الباء السّببية أو باء الواسطة. **وذرأها بمشيئته:** أي خلقكم جميعاً بالمشيئة، كما أنّ خلق الإنسان بالتّراب وبالصّلصال، وخلق الجن بالمارج من نار، فقد خلق الأشياء قبل كلّ شيء بالمشيئة، أي خلق التّراب والصّلصال والمارج كلّ شيء بالمشيئة فهي في حقيقتها وجوهرها وواقعها وكنهها هي الذّات الأولى التي أسجد الله تعالى لها جميع الملائكة وأبى إبليس حسداً وكفراً.

كوّنها بقدرته وذرأها بمشيئته: تريد أن تقول لهم بأي شيء كنتم؟ ممّ كنتم؟ وبأي شيء صرتم؟ أين كنتم في الغيب، ولم تكونوا شيئاً **إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة،** هكذا كنتم، فصرتم بالمشيئة، فاعرفوا المشيئة، فما كان جوابهم للمشيئة؟ إنّهم جعلوا سياطهم على مظاهر المشيئة، الله يريد أن يبين خسّة طبع هذه الشّرور من الخلق وحقيقة الظّلمة وحقيقة الجبت والكفر والعصيان في عالم الإمكان.

كان رسول الله (ص) جالساً كُلّمانظر إلى وجه عليّ، وإلى وجه فاطمة بكى، فيلتفت إليه أمير المؤمنين، يقول له: يا رسول الله، يا حبيبي، يا قرة عيني، كُلّما نظرت إلينا بكيت وأجهشت بالبكاء، لماذا يا رسول الله؟ قال: مما يصنع بكم بعدي، قال علي (ع): وما يصنع بنا بعدك؟

قال: تضرب على قرنك في محراب العبادة، وأمّا فاطمة فتلطم على خدها [1]، هكذا كان جوابهم لمجالي المشيئة، أن جعلوا سياطهم على أكتافها.

لعن الله الظّالمين من الأولين والآخرين

قال تعالى:

(((**ولا تحسبنّ الله غافلاً عمّا يعمل الظّالمون**[2])))

---

[1] - بحار الأنوار: 28 / 51 ح 20 نحوه.

[2] - ابراهيم: 41.

البحث الخامس

موضوع البحث:

في سرّ أنّ الكون وما فيه من عجائب وغرائب لآل محمّد، صلوات الله عليهم، وذلك من خلال البرهان المسمّى: بغنى الله المطلق.

قالت مولاتنا فاطمة الزهراء، صلوات الله عليها، في خطبتها الغرّاء أمام المهاجرين والأنصار وغيرهم:

ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلةٍ امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبّداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثّواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادةً لعباده عن نقمته، وحياشةً لهم إلى جنّته.

هنا بحث هامّ ننتقل من خلاله ومن قنواته إلى الأهداف التي من أجلها بعث الأنبياء والمرسلون وتلاهم بذلك الأوصياء، في رسالة هامّة، فقد يغفل أكثر الخلق عن هذه الأهداف، وبالتّالي تحصل حالة من التّداعي إلى الإسترخاء وعدم التّوجّه إلى حقيقة صياغة هذا الوجود، وما المراد منه؟ وما هي البواعث التي من أجلها

خلق الكون والإنسان؟ وما هي العلل الغائية؟

هذا ما تريد أن تبيّنه الزّهراء، صلوات الله عليها، تضع النّقاط فيه على الحروف، وفي هذا البحث سنكشف الأقنعة ونرفع السّتار عن الحقيقة التي أسدلت دونها الحجب، وذلك من خلال بيانات أم الأئمّة عليها و(عليهم السلام)، وينبغي أن نتابع البحث من أوّله إلى آخره للحصول على الغنيمة في هذه المناسبة من خلال يواقيت الغيب وجواهر الملكوت، والتي رصّعت بقوالب لفظية من فمّ أم الأئمّة فاطمة، صلوات الله عليها.

وهذا البحث من الأبحاث ذات الأهمية القصوى في العقائد، لأنّه يتعلق ببيان هذه المقطوعة التي وضّحت فيها الزّهراء (س) فلسفة وجود الإنسان، وفلسفة وجود الكون، لماذا كانت هذه العوالم؟ ما يرى وما لا يُرى، ما علم وما لا يُعلَم، فمع شمسنا هذهِ ملايين الشّموس، وبين كلّ شمس وشمس ما شاء الله من السّنوات الضوئية والحسابات الخاصّة.

إذاً لِم كلّ هذه الأسرار، وكلّ هذه الموجودات؟ تجيب عن كلّ ذلك الصّدّيقة الكبرى فاطمة (س) بجواب قاطع. حيث قالت: **ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها.**

نفت الزّهراء (س) أن تكون ثمّة حاجة أو فائدة لله سبحانه في الخلق. فهو تعالى لا يحتاج إلى التّكوين، ولا يستفيد من التّصوير، وهذا هو الغنى المطلق. فإذا لم يكن له حاجة في التّكوين، ولا فائدة له في التّصوير، فما العلّة حينئذٍ من الخلق؟ وما هي الدّواعي إلى ذلك؟ هذا ما نريد بحثه هنا.

ألفت نظركم أوّلاً إلى أنّ التّعبير في الشّطر الأول نفت في الحاجة، وفي الشطر الثاني من الكلام نفت فيه الفائدة، فما الفرق؟ لماذا لم ينعكس الأمر؟ لاحظ الدّقّة في المعاني الغيبية.

لقد أرادت (س) أن تشير إلى أنّ الحاجة بلحاظ أصل الوجود والإيجاد، منتفية عن الله عزّ وجلّ، وبلحاظ ما يترتّب على الإيجاد من ثمرات وفوائد، فهذا المترتّب من الثّمرات والفوائد منفي بالنّسبة إلى الله عزّوجلّ أيضاً؛ لأنّه تعالى غنيّ مطلق.

إذاً ما المراد حينئذٍ من خلق هذا الوجود؟

وما هي العلل الغائية والأسباب النّهائية في إيجاد هذا الكون؟

لقد جاء القرآن الكريم بنفي كلّ ألوان الإحتياج والإفتقار والاعواز وما إلى ذلك من شؤونات وصفات الممكنات، قال تعالى: ((**فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ**))[1] وغيرها من الآيات التي تشير إلى أن الله غني بالذّات عن كلّ الوجود والموجود بما فيه من عجائب وغرائب ودقائق، الله لا يرى لهذا الوجود أثراً، بلغت ما بلغت عظمته، بل وكذلك أولياء الله، لهذا يصرّح القرآن الكريم ببرهان الغنى المطلق، ويقرّرها بأنّ هذا الكون وهذا الوجود بما يتصور فيه من أشياء لم يحتج الله إليه على الإطلاق، هذا هو معنى الغنى، ولا يختلف اثنان من العقلاء عامّة، فضلاً عن عقلاء المسلمين والمؤمنين في أنّ الله غني بذاته عن كلّ شيء، فإذا كان الحقّ غنيّاً بالذّات، ولم يحتج إلى أحد، فلماذا خلق الوجود؟

هنا عدّة احتمالات: فأمّا أن نقول خلقه له تعالى، وأمّا أن نقول خلقه لغيره، فإذا كان الجواب الاوّل نقول: إن هذا الخلق والوجود والموجودات خلقها لنفسه؛ لأنّه يريدها ويحتاجها، وهذا خلاف فرض كونه تعالى غنيّاً، لأنّنا أثبتنا بالقرآن وبالعقل وبالوجدان: بأن الله غنيّ عن كلّ شيء، لا يحتاج شيئاً، ولا يعوزه أي شيء، ولا ينقصه أيّ شيء في هذا الوجود.

فإذا لم يكن الله تعالى قد خلق هذا الوجود وهذا الموجود له، لأنّه في غنى عنه، ولأنّه لم يحتج إليه، ولم يرده لنفسه على الإطلاق، ولا حاجة له في تكوينه،

---

[1] - آل عمران: 97.

ولا فائدة له في تصويره، فلمن إذن كان الخلق؟

يبقى لدينا الإفتراض الثاني، وهو أنّه تعالىخلقه للغير، فمن هم ذلك الغير؟ هذا الذي نريد أن نبحثه.

نقول: الله خلق هذا الوجود وما فيه من عظمة ودقّة، إنّما خلقه ليس لنفسه ـ كما بيّنا ـ وإنّما خلقه للغير، والغير هم محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم، لا غيرهم.

عن الرّسول الأكرم (ص) قال: هل تعلمون أنّي أفضل النّبيّين وأنّ وصي أفضل الوصيّين، ،انّ آدم (ع) لمّا رأى اسمي واسم عليّ وابنتي فاطمة والحسن والحسين، واسماء أولادهم مكتوباً على ساق العرش بالنّور، قال: الهي وسيدي! هل خلقت خلقاً أكرم عليك منّي؟ فقال: يا آدم، لو لا هذه الأسماء لما خلقت سماء مبنيّة، ولا أرضاً مدحيّة ولا ملكاً مقرباً؛ ولا نبياً مرسلاً ولا خلقتك يا آدم. وأورد الرّازي في تفسير قوله تعالى: (((**فإنّ الله لغنيّ حميد**)))[1] قال:

والغرض من بيان أنّه تعالى إنّما أمر بهذه الطّاعات لمنافع عائدة للعابد، لا لمنافع عائدة إلى المعبود، والذي يدلّ على أنّ الامر كذلك ما ذكره الله تعالىفي قوله: (((**فإنّ الله لغنيّ**))) وتفسيره وتفسيره أنّه واجب الوجود لذاته، وواجب الوجود بحسب جميع صفاته واعتباراته، فإنّه لو لم يكن واجب الوجود لذاته، لافتقر رجحان وجوده على عدمه إلى مرجح، فلم يكن غنيّاً، وقد فرضناه غنيّاً، هذا خلف، فثبت أنّ كونه غنيّاً يوجب كونه واجب الوجود في ذاته، وإذا ثبت أنّه واجب الوجود لذاته، كان أيضاً واجب الوجود بحسب جميع كمالاته، إذ لو لم تكن ذاته كافية في حصول ذلك الكمال، لافتقر في حصول ذلك الكمال إلى سبب منفصل، فحينئذٍ لا يكون غنيّاً، وقد فرضناه غنيّاً، هذا خلف، فثبت أنّ ذاته كافية

[1] ـ انظر روضة الواعظين للفتّال النيسابوري: 1 / 84 (الشّريف الرّضي)، بحار الانوار: 35 / 23 ح 15.

في حصول جميع كمالاته، وإذا كان الأمر كذلك كان حميداً لذاته، لأنّه لا معنى للحميد إلاّ الذي استحق الحمد، فثبت بهذا التّقرير الذي ذكرناه أنّ كونه غنياً حميداً يقتضي أن لا يزداد بشكر الشّاكرين، ولا ينتقص بكفر الكافرين، فلهذا المعنى قال تعالى (((**إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغنيّ حميد**))) وهذه المعاني من لطائف الأسرار[1].

إذاً لابدّ أن نلاحظ بعمق ودقّة أنّ المقصود من هذا الخلق هو أشرف الخلق، أراد الله أن يبيّن مراتبهم التي رتّبهم فيها، ومنزلتهم عنده سبحانه، فأحبّ أن يخلق الخلق لكي تعرف مقاماتهم (عليهم السلام)، وتتمّ بهم معرفة الحقّ تعالى، وإلاّ فلا يمكن أن يعرف، قال الرّسول الأكرم (ص) لعليّ (ع): **ما عرفك إلاّ الله وأنا، وما عرفني إلاّ الله وأنت، وما عرف الله إلاّ أنا وأنت**[2].

يعني أنّ المعرفة بالنسبة إلى الذّات، الأمر فيها على هذا النّحو: الطّلب مردود والباب مسدود.

إذاً ما المقصود يا فاطمة من هذا الخلق؟

قالت (س): المقصود من هذا الخلق (**الاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعة، وإظهاراً لقدرته، وتعبداً لبريته)**

فالغير بحكم القرآن والسّنّة والوجدان والعقل هو: محمّد، وآل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين، لأنّ أشرف الخلق وأفضل من في الوجود هو محمّد المصطفى صلوات الله عليه وآله وسلّم، وهذا ثابت، وأنّ عليّ بن أبي طالب (ع) أشرف الخلق بعده (ص)، لأنّ القرآن ساوى فيما بينه وبين رسول الله (ص) وجعله نفسه (((**وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ**)))[3]، ويستحيل أن يضاف ويقاس برسول الله

---

[1] - تفسير الرّازي: 19 / 69.
[2] - مشارق أنوار اليقين: 112، بحار الأنوار: 39 / 84.
[3] - آل عمران: 61.

انسان ليس كاملاص، فلمّا كان أمير المؤمنين (ع) جامعاً لجميع الصّفات والكمالات ـ وهو أهلها ـ كان نفس رسول الله (ص).

وإذا سألت وقلت: ماذا نصنع بهذا الحديث القدسي (((**كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف**)))[1]؟ فجواب ذلك: إنّ الفائدة للعارف لا للمعروف. أي إنّ هذا الذي يستخرج الكنز ويحصل عليه هو المستفيد منه، وأمّا الكنز فهو هو لا يتغير وهو واقف على قدميه، إنّما ينتظر المستنبط والمستخرج له، فإذا ثبت هذا فتكون الغاية من الخلق هي معرفة أفضل الخلق، لأنّهم وجه الله، يد الله، لسان الله، بل جنب الله، هذه هي الحقائق.

وقالت صلوات الله عليها: **من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها إلاّ تثبيتاً لحكمته**. والحكمة لم تثبت إلاّ بأركانها، وأركانها هم: المصطفى وخير الورى من أهل بيته (عليهم السلام).

ونحن بيّنا هذا المطلب في بحث متقدّم، قال تعالى: (((**وَمَا خَلَقتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعبدُونِ**)))[2] العبادة: فسّرت هنا بالمعرفة[3]، يعني لكي تعرفوا، لكي تصلوا إلى مقام المعرفة بأن الله أحبّ أن يظهر مظاهر إرادته، وألسن إرادته وتراجم وحيه، وآلاته التي بها يخلق ويرزق وما أشبه.

هناك من يخلط الأوراق، ويتصوّر بأنّ هذا الإعتقاد يوجب الغلوّ، وهذا محض اشتباه. الغلي من نسب إليهم الخلق أو الرّزق أو ما أشبه إستقلالاً دون الله نحن نقول: هم الواسطة وهم المظهر الذي به ظهر أن لا إله إلاّ الله، (**فبهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر لا إله إلاّ أنت**)[4]، نحن لا نعبدهم، بل نتوجّه بهم إلى

---

[1] - بحار الأنوار: 84 / 199.
[2] - الذّاريات: 56.
[3] - علل الشرائع: 9 باب 9.
[4] - اقبال الأعمال: 145.

الله، وهذا سرّ ظهور النّور في متن الكعبة وشقّ الجدار [1]، لتكون الكعبة في قضية الولاية، إنّما هي المتوجّه بها إلى الله، إذ لا تصعد الأعمال ولا تقبل ولا تزكّى إلاّ من خلال الوجهة التي نتوجّه بها إليه.

أنت تتوجّه إلى الكعبة مع أنّها ذات أربعة أركان وجدران، إنّك لا تسجد إلى الكعبة، وإنّما تجعلها وجهة تتوجّه بها إلى الله، فنحن معاشر الإمامية وفق المذهب الحقّ والنّظرة الصّائبة، نتوجّه بأولياء الله إلى الله عزّ وجلّ، وهذا هو اعتقادنا.

يتّهموننا بالغلو، لأنّنا نتخذ من محمّد وآله وسائط إلى الله، والقرآن الكريم يقول: (((**وَابتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيلَةَ**)))[2]. لماذا يأمر القرآن بالوسيلة؟ لماذا لم يقل ابتغوا إليّ ولا تبتغوا أحداً ولا تجعلوا إليّ وسيلة، لماذا يقول: (**وابتغوا إليه الوسيلة**)؟ لأنّه أراد أن يبين أنّ العبادة الحقّة، بأن تتوجّه للكعبة بقلبك وبروحك، لا أن تكون وثنيّاً في الأوهام، لأنّ هناك من يقول: إن الله أمامي، كيف يمكن أن ترى الله تعالى، وهل يمكن أن تدركه الأبصار؟! وهو **الممتنع من الإبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته**، كما قالت الزّهراء، صلوات الله عليها.

أنا أحاكم جميع المفسرين، وخصوصاً مفسري أهل السّنّة الذين يقولون في تفسير قوله تعالى: (((**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكلِيماً**)))[3] بأنّ التكليم المراد به: تكليم الله، كيف يتكلم، فهل لله تعالى لسان يكلّم به أحداً؟! فكونه واجباً أخرجه من الإمكان، وتوابع الإمكان فإنّه تعالى فوق اللّسان وفوق البصر وفوق الخلق وفوق كلّ شيء، ثمّ تأتي وتقول بأنّه يمكن أن نرى الله؟!

القرطبي يقول في تفسير الآية (((**وكلَّم الله موسى تكليماً**))): (تكليما) مصدر معناه التّأكيد، يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلاماً في شجرة فسمعه

---

[1] - اشارة إلى ولادة أمير المؤمنين (ع) في الكعبة المشرّفة.
[2] - المائدة: 35.
[3] - النّساء: 164.

موسى، بل هو الكلام الحقيق الذي يكون به المتكلّم متكلماً [1]. أنظر إلى هذا الكلام وتمعّن في كلام مولانا أمير المؤمنين (ع) حيث قال في خطبته: (أوّل الدّين معرفته، وكمال معرفته التّصديق به، وكمال التّصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنّه غير الصّفة، فمن وصف فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال علام فقد أخلى منه) [2]. هذا هو التّوحيد الخالص، والمعرفة الحقّة.

قال تعالى: (((**وَلَو أَنَّهم إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم جَآءُوكَ**)))[3]، والخطاب موجّه إلى الرسول الأكرم (ص) ومعناه: أنّ الرسول (ص) هو الوسيلة إلى الله، بقرينة أنّ الآية الشريفة جاءت بلفظ: (جاءوك) ولم يأتي بلفظ توجهوا لله؟ هنا يريدنا الله أن نتوجّه إليه بالوسيلة الممثلة بمحمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم.

قالت فاطمة (س): **أيها النّاس اعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً.**

يعني كلّ كلامي وكلّ فعلي حُجّة عليكم هذا تقرير للقاعدة الأصولية الثّابتة: من أنّ الكلام وفعل وتقرير المعصوم حُجّة، ومؤيد هذا في القرآن (((**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوى**)))[4] ـ **ولا أقول ما أقول غلطاً** يعني، أيّ شيء أقوله لا أقوله خلافاً للمنطق والعقل. **ولا أفعل ما أفعل شططاً**: أي لم يكن تجاوزاً عن الحدّ على الإطلاق.

---

[1] - تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 6 / 18 (دار احياء التّراث العربي).
[2] - نهج البلاغة: 13 - 14 (صبحي الصّالح).
[3] - النّساء: 64.
[4] - النّجم: 3.

البحث السادس

موضوع البحث:

نستدل بالقرآن الكريم لإثبات أنّ الوجود بأسره لآل محمّد (عليهم السلام) مع بيان دقيق لهذه الآية (((**النّبِيُّ أَولى بالمُؤمِنينَ مِن أَنفُسِهِم**)))[1].

قالت مولاتنا فاطمة الزهراء (س) في خطبتها الغرّاء أمام المهاجرين والأنصار وغيرهم: **كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبّداً لبريته، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثّواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنّته.**

نظراً لأهمية هذا المطلب العقائدي الهامّ في هذا المقطع الفاطميّ، ولما يترتّب عليه من ثمرات عظيمة في عالم الإعتقاد، وفي مباني الأصول الإعتقادية، نتطرّق ـ إتماماً للبحث ومزيداً للفائدة ـ إلى هذه الجملة التي انتهينا إليها في بحثنا، وهي: أنّ المجموعة الكونية بما فيها من دقائق وعجائب وغرائب، وما حوى هذا الكون المرئي وغير المرئي، ممّا علم وممّا لم يعلم، ممّا يرى وممّا لا يرى، كُلّها

---

[1] ـ الأحزاب: 6.

مملوكة على الإطلاق لمحمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم.

وهذا المطلب نبحثه الآن من القرآن الكريم قال تعالى: (((**إِنَّه لَقَولٌ فَصلٌ * وَمَا هُوَ بِالهَزلِ**)))[1] سأثبت لجميع من يسمع أو يرى في أدناها وأقصاها، أنّ هذا الوجود والموجود بأسره، بشراشره، بكلياته، بجواهره، بأعراضه، ببحاره، وأنهاره، وسماواته، وأراضيه وما حوت وما بطنت وفي جميع الأدوار والأطوار والأكوار، كُلّها مملوكة بصريح القرآن الكريم لهم عليهم أفضل الصّلاة والسّلام ولا يدع القرآن مجالاً للشك والرّيب، لأنّه هو الحُجّة، وهو الميزان، وهو القول الفصل، وهو الذي يمتلك الكلمة الأولى والأخيرة. ليحيا من حيّ عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيّنة. وبهذا لاندع مجالاً للريب والشّك والتّرديد.

وفي البدء أستعرض الآيات المباركة لإثبات هذا المطلب الذي أشارت إليه بفصيح العبارة وباللّسان العربيّ المبين أمّ الأئمة عليها و(عليهم السلام).

1- قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(((**وَسَخَّرَ لَكُم الشّمْسَ وَالقَمَر دَآئِبَينِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللّيْلَ والنّهَارَ * وآتَاكُم مِّن كلّ مَا سَألتُمُوه**)))[2]. في هذه الآية إشارة إلى أنّ الشمس والقمر والمجموعة الشمسية واللّيل والنّهار وما إلى ذلك إنّما هو مسخّر لكم.

سخّر لكم: التّسخير في اللّغة بمعنى التّذليل[3]، جعلها ذليلة ومقهورة وطائعة لكم، يعني ملّكها لكم، وجعلها تحت اختياركم وبأيديكم، كما سيتضح من الآيات الآتية.

إذاً سخّر لكم، أي جعل الشّمسَ والقمر واللّيل والنّهار بخدمتكم وطائعة لكم، ذليلة بين أيديكم، مقهورة لكم.

---

[1]- الطّارق: 13- 14.

[2]- إبراهيم: 33- 34.

[3]- انظر لسان العرب: 6 / 203 (مادة سخر).

2- قال تعالى: (((**وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلكَ لِتَجرِي فِي البَحرِ بِأمرِهِ**)))[1]، وفي آية أخرى (((**اللهُ الذي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجرِيَ الفُلكُ فِيهِ بِأمرِهِ**)))[2]. ففي الآية الأولى جعل السّفن تجري مسخّرة لكم طائعة ومنقادة لكم، أمّا في الآية الأخرى، جعل الله تعالى البحر طائعاً لكم ومنقادة في خدمتكم، وهذا صريح القرآن الكريم.

إذاً جعل الله تعالى الشّمس والقمر واللّيل والنّهار والفلك والبحار مسخّرة لكم، فلِمَ يُستنكر بأنّ الله تعالى جعل كلّ الوجود، وكلّ هذه السّماوات، وكلّ هذه الأرضين مسخّرة لمحمّد وآل محمد، صلوات الله عليهم؟

كتابُ الله تعالى ينطق عليكم بالحقّ بلسان عربي مبين، ليفقه أهل الشّرق والغرب معنى هذه الكلمات، والخطاب لجميع البشر بلا استثناء، وليس فقط موجهاً للمسلمين، وإنّما إلى جميع أهل الأرض. إنّ هذه الخطابات وجدانية.

3- وقال تعالى: (((**وَهُوَ الذي سَخَّرَ البَحرِ لتأكُلُوا مِنهُ لَحماً طَرِيّاً**)))[3].

4- قال الحقّ تعالى: (((**أَلَم تَرَوا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**)))[4]، ألم تروا بمعنى: التفتوا لكتاب الله، تدبّروا في كتاب الله (((**أَفَلاَ يَتَدبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلُوبٍ أَقفَالُهَا**)))[5].

فليفتح الإنسان تلك الأقفال، ولينتهي إلى حقيقة الآل، وأنّ كلّ ما في هذا الوجود ـ بنصّ القرآن الكريم، بالأخبار القطعية الصّادرة عن النّبيّ (ص) ـ مسخّر لكم.

---

[1] - إبراهيم: 32.
[2] - الجاثية: 12.
[3] - النّحل: 14.
[4] - لقمان: 20.
[5] - محمّد (ص): 24.

فإذا كان ما في السّماوات وما في الأرض مسخّراً لكم أيّها البشر، فيكيف بمن هم أفضل الخلق ـ بإجماع العقلاء والمسلمين ـ أعني المصطفى محمّد بن عبد الله وآله، صلوات الله عليهم.

قال تعالى: (((**إِنَّا سَخَّرنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحنَ بِالعَشِيِّ والإِشرَاقِ**)))[1].

6- قال تعالى: (((**فَسَخَّرنَا لَهُ الرّيحَ**)))[2] (((**كَذَلِكَ سَخَّرهَا لَكُم لِتُكَبِّرُوا اللهَ على مَا هَدَاكُم**)))[3].

إذاً، الأنعام والجبال والأنهار والبحار والسّماوات والأرضون، كُلّها مسخّرة منقادة ذليلة لإبن آدم بنصّ القرآن الكريم، أفلا تكون هذه السّماوات وهذه الأرضون وهذه المجموعات والمنظومات الفلكية، وعوالم ما فوق السّماوات من الجبروت والملكوت واللاهوت وعوالم الدّون وعوالم النّاسوت؛ منقادة بأسرها لآل محمّد (عليهم السلام)؟ وهذا القرآن عليكم بالحقّ، وتجد المصداق الحقّ لما قلناه وما ذكرناه من آيات مباركات مفصّلاً في الزّيارة الجامعة الشّريفة.

ورد في الزّيارة الجامعة قوله (ع): (**وذل كلّ شيء لكم**)[4].

كلّ ما في السماوات، وكلّ ما في الأرضين هو مسخّر لكم، منقاد لكن، ذليل لكم أيّها البشر، فكيف بهم (عليهم السلام) وقد كانوا وما زالوا أنواراً يحيطون بهذه المملكة الوجودية المسماة (بعوالم الإمكان).

أُنظر إلى قوله تعالى: (((**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَو أدنَى**)))[5]،

---

[1] - سورة ص: 18.
[2] - سورة ص: 36.
[3] - الحج: 37.
[4] - مقطع من الزّيارة الجامعة: انظر من لا يحضره الفقيه للصدوق: 2 / 372، وكتاب عيون أخبار الرّضا (ع): 1 / 305، وفرائد السّمطين للجويني: 2 / 179.
[5] - النّجم: 8 و9.

أين المسلمون عن كتاب الله؟! منهم من يقرأ القرآن ولا يفقه معناه، يأتي ويناقش، كيف تقول: إنّ الله خلق كلّ شيء لآل محمّد وملّكه لهم، ما هذا الغلوا؟! أفلم ينظر هذا الجاهل إلى القرآن؟ قال تعالى: (((**أَلَم تَرَوا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**)))[1].

سخرها لكم يا عبيد، يا من ترتكبون المعاصي والآثام، فكيف بمن هم أشرف الخلق والمعصومون بنصّ القرآن الكريم؟

فإذا كانت لكم السّماوات والأرضون مسخّرة، فاعلم أنّ لهم (عليهم السلام) فوق ذلك (((**وآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً من العَالَمِينَ**)))[2]، كلّ ما آتاه الله لموسى وعيسى ونوح وسليمان وداود وإبراهيم وشعيب وصالح، كلّ ما أوتيّ هؤلاء الأنبياء هو دون ما آتاه الله محمّداً آل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين.

فهم صلوات الله عليهم قادرون على شفاء المرضى، قادرون على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وهم أهل لذلك وفوق ذلك، وهذه حقيقة قرآنية (((**أَلَم تَرَوا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ**))) كلّ شيء ذليل لكم، فكيف بمن هم أزكى الخلائق؟

ففي الحديث القدسي: (**خلقتك يا إبن آدم لأجلي وخلقت الأشياء لأجلك**)[3].
إذاً كلّ شيء في هذا الكون مخلوق لأجلك أيها الإنسان، أي إنسان هذا؟ هو الإنسان الكامل الذي قال له أقبل فأقبل، ثمّ قال له أدبر فأدبر، ثمّ قال له: **وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك، بك أثيب وبك أعاقب**[4]، إشارة

---

[1] - لقمان: 20.
[2] - المائدة: 20.
[3] - شرح الأسماء الحسنى للملاّ هادي السّبزواري: 1 / 139، 202، 249.
[4] - الإختصاص: 244 (انتشارات مكتبة الزّهراء)، بحار الأنوار: 1 / 96 - 97.

إلى العقل الأوّل هو محمّد وعليّ، صلوات الله عليهما وعلى آلهما.

يفسر الحديث القدسي ما ورد عن أمير المؤمنين (ع) بخطابه لذئب الشّام معاوية، عليه اللّعنة، حيث يقول له: **فإنّا صنائع ربنا، والنّاس بعد صنائع لنا**[1]، وهذه أيضاً **خلقتك لأجلي، وخلقت الأشياء لأجلك.**

وفي رسالة كتبها الإمام الحُجّة عجّل الله فرجه، فيما كتب من رسائل، وردت في كتاب الإحتجاج: نحن صنائع ربنا[2]، وهذا تفسير **خلق المشيئة بنفسها**، إنّهم مصنوعون له، دون توسط أيّ شيء، **ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة.**

إذاً هنا التّعبير يوضح بأنّ صفة الفعل هي الصّنع، لأنّ الله لا يباشر شيئاً عدمياً، فإذا قلت أنّ الصّنع من صفات الذّات، فقد جعلت الله مركباً من الوجود والعدم، لأنّه قد يصنع وقد لا يصنع، وهذه ليست من صفات الذّات، وإنّما من صفات الفعل، وصفات الفعل هم صلوات الله عليهم مجاري إرادته، (**إرادة الرّبّ في مقادير أموره تهبط إليكم وتصدر من بيوتكم**)[3].

وقد يتساءل البعض ويقول: على أيّ أساس وعلى أيّ استناد هذا؟ فإنّا نقول:

كلّ المناقب والمعاجز والكرامات والمآثر تجدها في كتاب الله، ولا تجد منقبة ممّا ذكرها علماؤنا الأعلام، رضوان الله عليهم أجمعين، إلاّ ولها أصل في كتاب الله.

ويضاف لما قدمناه من أدلة قرآنية ـ على أنّ كلّ ما في الوجود مسخّر للإنسان فكيف بالذين كانت الأشياء بهم ومنهم صدرت ـ آية أخرى من بين الآيات الصّريحة التي تصرّح بأنّ كلّ شيء فداء المصطفى وآله. أنظر قوله تعالى:

---

[1] ـ نهج البلاغة: 528 كتاب 28 (صبحي صالح).
[2] ـ الإحتجاج للطبرسي: 2 / 278 (مطبعة النّعمان ـ النّجف).
[3] ـ الكافي للكليني: 4 / 577.

(((**النّبيُّ أَولَى بِالمُؤمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِم**)))[1] وهنا مجموعة من الأبحاث:

1- من هو النّبيّ المعنى في الآية الشّريفة؟

هو محمّد بن عبد الله (ص). وهناك حقيقة يجب الإلتفات إليها وهي أنّ النّبيّ عندما يطلق على ذات محمّد (ص) يراد منه أيضاً وبلا شك نفس محمّد، وهو عليّ بن أبي طالب لقوله تعالى: (((**وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُم**)))[2].

2- قوله: (((**أولى**))) يعني المقدّم، الذي له رتبة التّقدّم على غيره، فلو دار الأمر بين وجودك وبين وجود المصطفى أيهما يقدّم؟ المصطفى أولى، إذاً فهو أولى بالتّقدّم في كلّ شيء.

3- المؤمنون، من هم المؤمنون؟ كلّ من آمن بالله ن آدم حتّى الخاتم، كُلّهم يطلق عليهم مؤمنون، نوح من المؤمنين (((**إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا المُؤمِنِينَ**)))[3] وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين، وحتّى الجن والملائكة الكروبين والملائكة الموكلين والملائكة الذين بهم تدار الأمور وتدبّر، (((**فَالمُدَبِّراتِ أَمْراً**)))[4] كلّ هؤلاء يصدق عليهم لفظ مؤمن.

إذاً كلمة بالمؤمنين تعني كلّ الوجود ممّن آمن (((**النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**)))، هذه كلمة تحيِّر الكُمّل والعقلاء! ماذا تعني أنفسهم؟ يعني، أغلى شيء في هذا الوجود (((**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**)))[5] إذاً الرّوح رخيصة أزاء روح المصطفى وآل المصطفى، صلوات الله عليهم أجمعين وروحهم مقدّمة على جميع الانفس، وعلى جميع الأرواح من الأنبياء، والصّدّيقين، والأولياء، والشّهداء،

---

[1]- الأحزاب: 6.
[2]- آل عمران: 61.
[3]- الصافات: 81.
[4]- النّازعات: 5.
[5]- الحجر: 29.

حتّى أولي العزم، نفس النّبيّ (ص) أولى من أنفسهم، إذاً النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، يعني أنّ كلّ نفس قائمة هي دون نفس النّبيّ (ص)، فما بالك بالشّمس والسّماوات والأرضين وغيرها تصبح ملكاً خالصاً لهم صلوات الله عليهم.

وقد ثبت بنصّ حديث الغدير وحسب ما ذكرته كتب ومصادر علماء أهل السّنّة على ما أحصاه العلاّمة الأميني (رحمه الله) في كتاب الغدير من خلال عشرة آلاف كتاب، أنّه (ص) قال: (**من كنت مولاه فعليّ مولاه**)[1].

إذاً إذا كنت مولى، فعليّ هو المولى، وحينئذٍ هو أولى، كما أنّ النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم بنصّ الأخبار القطعية، فهل يبقى مجال للشك والرّيب، كُلّهم يروون أنّه (ص) قال: (**السّت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى فقال: من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه**).

إذاً ما قيمة السّماء والأرض والشّجر والحجر والمدر بالنّسبة لعليّ وآل عليّ. فالدّنيا وما فيها لا تساوي شيء بنظر عليّ وآل عليّ إن لم تكن ضمن مرضاة الله تعالى. أنظر قول أمير المؤمنين في ذلك: (**دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز**)[2].

ممّا تقدّم تبيّن أنّه بهم ظهر أن لا إله إلاّ الله، وبهم تحقق كلّ شيء، لكن ما عرفناهم حقّ معرفتهم، وا سوأتاه عليكم يا خلق الله! إذ لم تعرفوا لهم قدراً ولا وزناً، وا سوأتاه! ووا أسفاه على هذا الخلق المنكوس! الذي يناقش في كتاب الله، ويعترض على كتاب الله، يحلّ ما حرّم الله، ويحرّم ما أحلّ الله، عندما يغفل الإنسان عن المنبع الأصيل وعن أهل البيت تكون هذه النّتائج، فالقضية ليست تشيّعاً، وإنّما القضية بصيرة في التّشيّع، إذا لم يكن هناك بصيرة في أمر أهل البيت

---

[1] - أنظر كتاب الغدير للأميني: 1 / 178 (دار الكتاب العربي - بيروت).

[2] - نهج البلاغة: 30 ضمن الخطبة الشّقشقية (صبحي صالح).

فلن تصل إلى شيء أبداً وإن كنت شيعياً.

ثم قالت الزهراء، صلوات الله عليها: **ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا إحتذاءٍ أمثلةٍ امتثلها، كوّنها بقدرته وذرأها بمشيئته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلاّ تثبيتاً لحكمته**. والحكمة هم لا غير، إي تفهموا الحقيقة المحمّدية العلويّة الفاطمية.

وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته: إي يظهر قدرته بهم، لأنّهم هم مجاري القدرة، وهم الآلات التي تعبر عليها الصّفات، ليعرف ذلك من عرفه.

ثمّ تقول صلوات الله عليها: **وتعبداً لبريته**، حتى يعي الخلق معنى التّعبديّة إلى الله عزَّ وجلَّ، حينما يتوجّه إلى الكعبة وإلى النّور الذي ولد في الكعبة، إنّه يتوجّه إليها لغرض أن يعبد الله، فهي الوجه التي منها ننطلق إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلاّ ما هو تفسيرك للكعبة وتوجّه المسلمون لها؟ نحن لا نتوجه للكعبة، نحن لا نتوجه إلاّ لله تعالى، ولكن الله تعالى جعل لنا قبلةً، وتلك القبلة ما كانت مجرد أحجاراً، وإنّما هي أحجار قامت بالأنوار المنشقّة إلى جوار الرّكن اليماني.

هذه عقيدتنا في الدنيا، وفي القبر، وفي المحشر، إنّك يا منكر ويا نكير عبد مطلق تمام العبوديّة لمحمّد صلوات الله عليه فأنا عبد من عبيدهم، وقد نطق بهذه الحقيقة الأولياء والكمّل من البشر.

أسرار الخطبة الغرّاء.....74

موضوع البحث:

بحث في أسرار نشأة الأنوار المحمّدية قبل الخلائق من خلال البيان السّاطع في خطبة الزّهراء وما يتعلق بذلك من أبحاث هامّة.

قالت فاطمة الزهراء (س) في خطبتها الغرّاء.

ثمّ جعل الثّواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنّته، وأشهد أنّ أبي محمّداً (ص) عبده ورسوله، اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور، وإحاطة بحوادث الدّهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه.

هذه المقطوعة تتمّة لما سبق من البحث، وسنمضي قدماً إن شاء الله لبيان المطلب العقائدي الهام على لسان مولاتنا الصّدّيقة الكبرى (س) بعد بيان المفردات.

تقول (س): **ثمّ جعل الثّواب على طاعته**، لا شك أن الطّاعة لا تكون طاعة لله إلاّ بطاعة المصطفى محمّد بن عبد الله (ص) (((**مَن يُطِعِ الرّسُولَ فَقَد أَطَاعَ اللهَ**)))[1] ولذا قرنت طاعته بطاعة الله، وطاعة أولياء الله، الأئمة الكرام بطاعته (((**يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الأَمرِ مِنكُم**)))[2]. وبلا أدنى ريب أنّ المراد بأوّلي الأمر آل محمّد (عليهم السلام)[3].

إذاً جعل الثّواب على ضوء الطّاعة، طاعة الحقّ تبارك وتعالى والنّبيّ والوليّ، لأنّه لا يمكن تحقق الطّاعة لله إلاّ بعد تحقق الطّاعة للنبيّ (ص)، ولا يمكن أن تحقق الطّاعة للنبيّ إلاّ بعد أن تحقق الطّاعة للإمام، ولذا ورد عن الإمام (ع) في الأدعية المتعلّقة في زمان الغيبة: (**اللّهم عرّفني نفسك، فإنّك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف نبيّك، اللّهمّ عرّفني حجّتك فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني**)[4].

إذاً كلّ شيء ارتبط بحقيقة النّقطة، كما عبّرنا عنها على ضوء ما روي عنهم (عليهم السلام) بأنّها هي الولاية، ودليلنا من كتاب الله (((**يَا أَيُّهَا الرّسُولُ بَلِّغ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَم تَفْعَل فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالتهُ**)))[5]، لا رسالة إلاّ بالولاية،

---

[1] - النّساء: 80.

[2] - النّساء: 59.

[3] - اورد الصّدق في كمال الدّين وتمام النّعمة: 252 باب 23 ح3، قال: عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: لمّا أنزل الله عزّ وجلّ على نبيه محمّد (ص): (((**يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله...**))) قلت يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم؟ فقال(ص): هم خلفائي يا جابر، وأئمة المسلمين من بعدي، أوّلهم عليّ... (وعدّ الأئمة الإثنى عشر (عليهم السلام)).

[4] - كمال الدين للصدوق: 2 / 342 باب 33 ح24، عنه البحار: 52 / 146- 147.

[5] - المائدة: 67.

والولاية قطبها ومركزها ومحورها عليّ وآل عليّ، صلوات الله عليهم، وهذا دليلنا القطعي من كتاب الله الذي أذعنت له الرّقاب، وخضعت له الجبابرة.

قالت (س): **ووضع العقاب على معصيته.** معصية الله لا تكون إلاّ بمعصية النّبي (ص)، ومعصية النّبي (ص) لا تكون إلاّ بمعصية الوليّ، فمن عصاهم فقد عصى الله، ولهذا ورد عن النّبي (ص) أنّه قال: **يا عليّ، من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاعك فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصاك فقد عصاني**[1].

قالت الزّهراء (س): **ذيادة لعباده عن نقمته،** الذّيادة: ذود الإبل عن المشرعة، يعني دفعها وطردها ومنعها. ورد عن الرّسول الأكرم (ص) في حديث الحوض: (**ليذادنّ ناس من أصحابي عن الحوض كما تذاد الغريبة من الإبل**) أي ليطردنّ[2].

ثمّ قالت (س): **وحياشةً لهم إلى جنّته.** الحياشة بمعنى السّوق، وسوقاً لهم إلى جنّته.

وبهذا نسفت الصّديقة الكبرى (س) بهذه العبارات قواعد الإعتقادات الفاسدة للمجبّرة الذين قالوا بأن الله أجبر العباد على الطاعة، أو اجبرهم على المعصية، نسفت كلّ هذه القواعد من الأصل فخرّ عليهم السّقف من فوقهم فلم يبق لهم أثراً، لأنّه محال أ، يجعل الثواب أو العقاب على ما أكره عليه والزّم عليه بنحو العلّة والمعلول.

فإذا كان الإنسان يتحرك مثل الشّمس التي تتحرك وفق نظام محدّد لها، فلماذا وضع الثّواب والعقاب؟

---

[1] - أورده القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة: 2 / 313 باب 56 ح 900، مرفوعاً عن أبي ذر، رضوان الله عليه.
[2] - مسند أحمد بن حنبل: 3 / 471 ح 9864.

ما جعل الثّواب إلاّ باختيار الإنسان فعل الطّاعة، وما جعل العقاب إلاّ باختيار الإنسان فعل المعصية، وبهذا كما أشرت لم يبق بنيان لقواعد الفساد الفكري للمجبّرة الذين يعتقدون بالجبر، وبهذا ينتهي البحث في قسم التّوحيد.

ثمّ لما انتهت، صلوات الله عليها، من بيان القواعد الرّصينة والأسس المتينة في التّوحيد، والتي جاء فيها أنّ التّوحيد الحقّ والخالص الذي جاء علي لسانها (س) هو أن لا يكون هناك وصفٌ بلسان، ولا توهمٌ بعقل، وأنّ الله عزَّ وجلَّ كما وصفته (س): **ممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته**، انتقلت إلى الرّكن الثاني من أصول الإعتقادات، وهو النّبوّة. فقالت (س): **وأشهد أنّ أبي محمّداً عبده ورسوله**: في هذه الشّهادة ذكرت الأبوّة للإشعار بأنّ كل ما عندكم أيّها الأصنام، أيّها الأوثان المتحركة، أيّها الجامدون كأنّكم خُشبٌ مسنّدة، ما كنتم ولا صرتم إلاّ بأبي محمّد بن عبد الله (ص).

هذه كلمة رقيقة للغاية، وعميقة في نفس الوقت، وذات دلالات بأنّ كلّ ما في هذا الوجود من خير، صدر وانحدر من أبي، فماذا تفعلون؟ ماذا تجنون على أنفسكم من جنايات؟ بئس ما قدّمت لكم أنفسكم وفي العذاب أنتم خالدون.

شهدت له بالعبودية، أنّه عبده ورسوله، ولكن أيّ عبد هو؟

هنا الكلام، وهنا حيرة الكمّل، هنا وقع من وقع، وصعق من صعق، ونشر بالمناشير من نشر، وعرج إلى بطن الحوت من عرج، وصعد إلى أعلى الجبروت من صعد، كلّه في مسألة عبودية المصطفى (ص).

قالت (س): **اختاره قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه**. الاختيار وقع قبل أن يكون رسولاً، متى كان هذا الإختيار؟

أين كان الرّسول قبل أن يكون رسولاً؟ هذا سيتمّ بحثه لنكسب بذلك غنيمة بعد غنيمة، وفوزاً بعد فوز، ونصرة بعد نصرة، ببركة **اللّهمّ انصر من نصره**،

واخذل من خذله[1]، فمنصور من نصرهم ولو بالكلمة، أو سماع الكلمة، فهذا يشمله دعاء النّبي (ص).

ثمّ تقول عليها السّلام: **وسمّاه**. أي جعل له اسماً، هنا الإسم حيّر العلماء والكمّل، ماذا يعني سمّاه؟

هل بمعنى أنه سمّاه بهذه الألفاظ م ح م د، أمّ المراد شيء آخر؟

وسمّاه قبل أن اجتباه. يعني، قبل أن يكون مجتبىً من بين هذا الخلق من أوّله إلى ختمه.

سمّاه ماذا يعني؟

سمّاه: بأن جعل له مقام الإسم، بعض الشّراح يقول: سمّاه بمعنى أن أطلق عليه اسم محمّد (ص)، هذا معنى قشري، ومعنى ظاهري، لأنّ كلمات أهل البيت، صلوات الله عليهم، ككلمات القرآن لها ظهر وباطن، إنّما تريد أن تقول بأنّ التّسمية بمعنى أنّه قبل الإجتباء كان له مقام الإسم.

قال تعالى: (((**وَلِلّهِ الأَسمَآءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا**)))[2]، وسمّاه أي جعل له مقام رئيس الأسماء الحسنى، والصّفات العليا، وما ذلك على الله بعزيز، فالله لا يتعامل بالألفاظ، وإنّما المراد بالأسماء الحقائق الوجودية التي تلقّاها آدم فصار آدماً (((**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسمَآءَ كُلَّها**)))[3].

بعض المفسرين يذكر بانّ معنى هذه الآية أن علّم آدم أسماء الأشياء كالحجر والمدر والطّين، والحروف الأبجدية، فهلّ يعقل أنّ هذا الخليفة المستخلف عن الحكيم العزيز العليّ الاعلى، قد علّمه الله حروف وكلمات؟ هذا هو الاصطفاء

---

[1] - اقتباساً من قول الرّسول الأكرم (ص) في حقّ أمير المؤمنين (ع) في حادثة الغدير المتواترة.
[2] - الأعراف: 180.
[3] - البقرة: 31.

والخليفة في مفهوم هؤلاء، القضية فوق هذا (((**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسمَآءَ كُلّها**))) وكان مما علم أن **سمّاه قبل أن اجتباه، واصطفاه قبل أن ابتعثه، متى؟ إذ الخلائق بالغيب مكنونة**. موسى، عيسى، إبراهيم، نوح، ومئة وأربعة وعشرون ألف نبيّ في كتم العدم، كانوا في ستر الأهاويل مكنونة مصونة، والله تعالى اصطفى محمّد بن عبد الله (ص) اسماً له، وحقيقةً بيّنةً جليّةً. أورد ابن الجوزي، عن ميسرة قال: قلت يا رسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: لمّا خلق الله تعالى الأرض، واستوى إلى السّماء، فسواهن سبع سموات، وخلق العرش، كتب على ساق العرش: محمّد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله تعالى الجنة التي أسكنها آدم وحوراء، فكتب اسمي على الأبواب والأوراق والقباب والخيام، وآدمُ بين الرّوح والجسد، فلما أحياه الله تعالى نظر إلى العرش فرأي إسمي، فأخبره الله تعالى أنه سيِّد ولدك. فلما غَرَّهما الشّيطان تابا واستشفعا بإسمي إليه[1].

قالت عليها السّلام: **إذ الخلائق بالغيب مكنونة وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة**. يعني، في العدم، والفزع والخوف، ولم تقل (س) بعض الخلق وبعض النّاس وبعض الجنّ، وإنّما قالت الخلائق ـ كلّ الخلائق ـ في كتم العدم، والمصطفى هو مصطفى الله، واسماً رئيساً لأسماء الله تعالى.

أنا أثبت لك أنّ النّبي (ص) فوق الوجود وقبل الوجود وبعد الوجود من القرآن الكريم، وأؤكد لك بأنّ الزّهراء (س) جارت بهذه الكلمة كتاب الله، ففي كتاب الله كان مصطفى ومخلوقاً وكان نوراً بعرشه محدقاً قبل أن يكون إبراهيم ونوح وموسى وعيسى، وكلّ الأنبياء وكلّ الأوصياء وكلّ من في الوجود من الملائكة المقربين والموكّلين لم يكونوا وكان النّبي (ص). أورد القندوزي وغيره

[1] ـ الوفا بأحوال المصطفى: 25 (دار الكتب العلمية بيروت).

هذه الحقيقة وسطّروها في كتبهم عن جابر، عن رسول الله (ص) **قال: أوّل ما خلق الله روحي، وأوّل ما خلق الله نوري**، وقال القندوزي: المراد هنا هو الحقيقة المحمّدية التي لا يختلف عليها اثنان من الكمّل وهي روح نبيّنا (ص)[1].

وهذا كتاب الله، تأمّل الآيات المباركات في سورة الطّلاق (((**فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الذين آمَنُوا قَد أَنزَلَ اللهُ إِليكُم ذكراً * رَسُولاً يَتلُوا عليكم آيَاتِ الله مُبَيِّناتٍ**)))[2] ماذا أنزل الله؟ أين كان هذا المنزّل، **إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة** مصداق لقوله تعالى (((**أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً**))).

إنّ الذين يتلو هو الذّكر وهو الرّسول، (((**يتلو عليكم آيات الله مبيّنات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصّالحات من الظّلمات إلى النّور**)))، هذا النّور النّازل هو محمّد بن عبد الله (ص).

هذه كلمة الصّدّيقة الكبرى (س)، كلّ نبيّ ورسول مرسل ظلّ ظليل لشخص الحقيقة المحمّدية الشّاخص، ليعلم الجميع هذه هي الغنيمة العظمى في المعارف، كلّ شيء في هذا الوجود يا أبناء الإسلام، وأبناء النّصارى واليهود، كلّ شيء في هذا الوجود ظلّ ظليل لشخص وشاخص الحقيقة المحمّدية والحقيقة العلويّة. قال تعالى: (((**سَنُرِيهِم آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفي أَنفُسِهِم**)))[3].

تأمّل في سورة الكهف في قصّة موسى والخضر (((**وَمَا فَعَلتُهُ عَن أمرِي**)))[4]، انّما فعلته عن أمر الله، وأمر الله في الزّيارة الجامعة (**والمستقرين في**

---

[1] - ينابيع المودّة: 1 / 46 باب 1 ح 4، وانظر كذلك كفاية الطّالب: 314 الباب 87.
[2] - الطّلاق: 10- 11.
[3] - فصلت: 53.
[4] - الكهف: 82.

أمر الله)))[1]، هذه كلمات أهل البيت، صلوات الله عليهم.

ثمّ تقول (س): **وبنهاية العدم مقرونة علماً من الله تعالى بمآيل الأمور** ، يعني، بانتهاء ومرجع الأمور.

وإحاطة بحوادث الدّهور، ومعرفة بمواقع المقدور. لماذا ابتعثه؟

إتماماً لأمره، والمراد هنا بالأمر هو الذي أشرت إليه، (**والمستقرين في أمر الله**)، لأنّ كلّ شيء هو من أمر ربّي.

ثمّ قالت (س): **ابتعثه الله إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه** . تريد أن تبين بنحو العزم والجدّ حقيقة المصطفى (ص) ولهذا ورد في الحديث القدسي.

(خلقتك يا ابن آدم لأجلي، وخلقت الأشياء لأجلك)[2].

وإنفاذاً لمقادير حتمه ، لأنّ الله قدّر وقضى أن يظهر محمّد المصطفى وعليّ المرتضى وفاطمة الزّهراء والحسن المجتبى والحسين سيّد الشّهداء والأئمة الأولياء التّسعة المعصومين من ذرية أبي عبد الله الحسين، صلوات الله عليهم أجمعين، ليظهر هذا الأمر وهذا الحُكم وهذا المقدّر لمقادير حكمه (**وما خلقت سماء مبنية، ولا أرضاً مدحيّة، ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة، ولا فلكاً يسري ولا بحراً يجري إلاّ لأجلكم**)[3].

ولهذا عندما تقف أمام الكعبة بالنّسبة للواجبات خمس مرات في اليوم وتنوي التّقرب إلى الله تعالى، فكذا عندما تقدم بين يدي محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم، تقدّمهم إلى الله، فهم الوجهة التي نتوجّه بها إلى الله، وهم

---

[1] - انظر كتاب المؤلف الصّوارم القاطعة والحجج اللاّمعة في إثبات الزّيارة الجامعة: 58 الفقرة: 39 ففيها تفصيل وتوضيح مفيد فراجع.

[2] - شرح الأسماء الحسنى (ملا هادي السّبزواري): 1 / 139، 202، 249.

[3] - عوالم فاطمة الزّهراء (س) للبحراني: 11 / 641 (مؤسسة الإمام المهدي (ع) - قم).

أوقات صلاتنا، وأوقات نوافلنا، وعباداتنا وصيامنا، وكلّ أفعالنا، وما تقوله في الكعبة قُله في النّور المتولد في الكعبة.

نحن لا نصلي للكعبة، ولا نسجد للكعبة، قال تعالى: (((**فَولِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ**)))[1]، نحن نتوجّه للكعبة، لأنّها الوجهة التي نتوجّه بها إلى الله (((**وَلِكلّ وِجهَة هُوَ مُوَلِّيهَا**)))[2]، الكعبة فيها الرّكن اليماني، وإلى جنب الرّكن اليماني نور عليّ بن أبي طالب (ع)، فلا عبادة إلاّ بالتّوجه إلى الكعبة المتولد فيها النّور الإلهي. الذي لا يعرف هذه الحقائق، هو المشرك، وهو الوثني، يعبد أوثاناً متحركة موصوفةً بالصّعود والنّزول، ففي الجاهلية كان لهم أصنام، كانت جامدة غير متحركة، أمّا اليوم فالأصنام والأوثان متحركة موصوفة بالصّعود وبالنّزول وبالرّكوب، أيّ توحيد هذا؟

تصف ربّك بالصّعود تارة، وبالنّزول تارة أخرى، وبالحركة ثالثة حتى يضحك مع أحمد بن حنبل، جلّ الله ربّي الذي لا يوصف بوصف لا تدركه الأبصار، كلّ هذا من يوم الإثنين[3] الذي فيه ضرب التّوحيد الخالص، فجرى ما جرى، وأُقصي من أُقصي، وتخبطت الأمة، وظهرت الفرق المختلفة والمتعددة مثل المجبرة، والمعتزلة، والمفوضة، والغلاة المشركين الذين يدّعون الألوهية والنّبوّة للبعض، نحن أصحاب العقيدة الحقّة المأخوذة على أساس القرآن الكريم ومعاريض كلام أهل البيت (عليهم السلام) وكلّ شيء يخرج وينحرف عن هذا المسار نعده سفاسف باطلة والحمد لله ربّ العالمين.

---

[1] - البقرة: 144.

[2] - البقرة: 148.

[3] - اشارة إلى الإعتداء الصّارخ الذي قام به المجرمون على بيت النّبوّة، من ضرب البتول، واسقاط جنينها، واقصاء الوصيّ وما إلى ذلك من المآسي والويلات التي كانت في ذلك اليوم.

أسرار الخطبة الغرّاء.....84

البحث الثامن

موضوع البحث:

بحث في أدوار المصطفى (ص) وأنوار وجوده على العوالم كُلّها من بدوها حتّى ختمها وفيها سرّ هام.

قالت مولاتنا فاطمة الزّهراء (س) في خطبتها الغرّاء:

فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرةً لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي، محمّد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في النّاس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدّين القويم، ودعاهم إلى الطّريق المستقيم. ثمّ قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمّد (ص) عن تعب هذه الدّار في راحة، قد حفّ بالملائكة الأبرار، ورضوان الرّبّ الغفّار، ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي، نبيّه وأمينه، وخيرته من الخلق ورضيّه، والسّلام عليه ورحمة الله وبركاته.

هذه العبارات تشير إلى الجمال المحمّدي، والكمال الأحمدي، كلّ هذه الأوصاف انّما هي تعبير عن الحقيقة التي حدثت في عالم الإمكان، ووقعت ببركة سيّد الأكوان محمّد بن عبد الله (ص).

هنا مجموعة من المطالب ينبغي الإلتفات إليها جيّداً.

قالت (س): **فرأى الأمم فرقاً في أديانها**. الأمم جمع أمّة، وكانوا على فرق في الأديان والمذاهب والمشارب والمسالك، فمنهم الأمّة اليهودية، ومنهم الأمّة النّصرانية والمجوسية، وهكذا من الفرق إلى ما شاء الله، حتّى ورد في الحديث المعروف عن المصطفى (ص): (افترقت أمّة موسى على إحدى وسبعين فرقة، واحدة ناجية، وسبعون منها في النّار، وأمّا الناجية فهي التي اتّبعت وصيّ موسى، وافترقت أمّة عيسى على اثنين وسبعين فرقة فالنّاجية واحدة، وفي النّار منها واحد وسبعون هؤلاء الذين وقعوا في الهلاك والخسران المبين، والنّاجية هي التي اتّبعت أوصياء عيسى. وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون منها في النّار، وواحدة في الجنّة وهي التي تبعت وصيي،

ثمّ ضرب على منكب أمير المؤمنين (ع)، ثمّ قال: اثنتان وسبعون في النّار وواحدة في الجنّة وهي التي اتخذت محبّتك وهم شيعتك[1].

مع هذا الوضع العصيب، وتفاوت الآراء وتشتت الأهواء، خرج إلى النّور، نور الأنوار، ومنوّر الأنوار محمّد بن عبد الله (ص)، من هنا أنقذ هذه الأمم بأن جعلها أمّة واحدة، وسيتضح أنّ الأمّة الواحدة، لها شرط أساسي به تكون الوَحْدَة، كما أنّ التّوحيد المروي بطريق قطعي عن الإمام الرضا (ع): **بأنّ دخول حصن الله ببركة كلمة لا إله إلاّ الله**، ثمّ التفت إليهم وقال: (**بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها**)[2].

---

[1] - انظر كتاب سليم بن قيس الهلالي: 2 / 913، بحار الأنوار: 28 / 13 ح 20.

[2] - عيون أخبار الرضا (ع): 1 / 145.

إذاً لا يمكن تحقيق التوحيد الخالص، إلاّ بالرّجوع إلى الباب الذي يؤتي منه، من خلال الولاية التي عرضت على الخلق أجمعين، وعلى السّماوات والأرضين والجبال، فَأبينَ أن يَحمِلْنَها وأشفَقنَ مِنهَا وَحَملَها الإِنسَانُ إنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً[1].

وعليه لا يمكن تحقيق الأمة الواحدة إلاّ بهم، ولهذا ورد في الزّيارة الجامعة: (**وبموالاتكم تمت الكلمة، وعظمت النّعمة، وائتلفت الفرقة**)[2]، أي بالواسطة، وبتعبير القرآن الكريم بالوسيلة التي يبتغى من خلالها الوصول إليه جلّ وعلا.

ثمّ قالت (س): **فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها**. ظلمة بعد ظلمة، وجهلاً بعد جهل، وعمى بعد عمى، لاحظ التّعبير الفاطمي: **فرأى الأمم فرقاً في أديانها عُكّفاً** (عاكفة في حالة ركوع وخضوع وسجود، لأيّ شيء؟ لنيرانها، وهي إشارة إلى عبدة النّار، هؤلاء الذين لم يعوا اللّيل من النّهار، فاتخذوا النّار ربّاً وقالوا إنّها إله الخير، وبنوا عليها بنياناً، وأحكموا البنيان لئلا تنطفئ النّيران، وقد انطفأت ببركة إشراقة ولادة المصطفى (ص)[3].

عابدة لأوثانها. إشارة لما كان عليه العرب قبل الإسلام، من عبادة الأوثان، الثّابتة الجامدة المصنوعة، وهذه إشارة على ما عليه الإنسان في أسفل درجات الظّلمة والدّرك، وبيان حال ووضع الأمم قبل حلول نور المصطفى (ص)، وهنا تريد مخاطبة الموجودين فتقول: ماذا كنتم؟ ما هو أساسكم؟ عبدة أوثان، وكُلّهم يعترفون بأنّ القوم كانوا يعبدون الأوثان.

---

[1] - اقتباساً من قوله تعالى في سورة الأحزاب: 72.

[2] - مقطع من الزّيارة الجامعة. انظر كتاب المؤلف الصّوارم القاطعة: 168 الفقرة: 204.

[3] - انظر الوفا بأحوال المصطفى لإبن الجوزي: 94، السّيرة النّبويّة لإبن كثير: 1 / 215، دلائل النّبوّة للبيهقي: 1 / 103 وغيرها من المصادر.

قالت (س): **منكرة لله مع عرفانها**. هذا مجاراة لكلام الله حيث قال تعالى: (((**يَعرِفُونَ نعمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**)))[1] وقال تعالى في آية أخرى: (((**وَجَحَدُوا بِهَا وَاستَيقَنَتهَا أَنفُسُهُم**)))[2].

وهنا يتضح أنّ كلّ هؤلاء رغم التّشتت والتّفرّق في الأديان وفي المذاهب والمشارب فانّهم كانوا يعترفون بالله، وهنا يطرح سؤال: إذا كانوا عكّفاً على النّيران وعابدين للأوثان، فكيف عرفوا الله؟

قالت (س): **منكرةً لله مع عرفانها**. أيُّ معرفةٍ هذه؟ أجابوا بأنّ المعرفة على أقسام:

الأولى: المعرفة الفطرية، (((**فِطرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النّاسَ عليهَا لا تَبدِيلَ لِخَلقِ اللهِ**)))[3].

الثّاني: المعرفة بالعقل، لأنّه مهما بلغ الإنسان من الإنحطاط في الإلحاد، فإنّه يعتقد بأنّ صدور هذا الكون لابدّ أن يكون من قبل القدرة، وهذا ما أشارت إليه فاطمة، صلوات الله عليها.

الثالث: المعرفة بالوجدان، بأنّ الإنسان إذا حكّم وجدانه يقطع بأنّ هذا الكون أوجده موجد ولا يحتاج إلى كثير من التّمعن والنّظر، وبهذا بيّنت الزّهراء أنّه مع ما هم عليه من الإلحاد والوثنية والعبودية للنيران، لكنّهم كانوا يعترفون بالله تعالى بالذّات والوجدان والفطرة والعقل.

وبعد كلّ هذهِ الويلات والظّلمات المتتابعات، قالت (س): أنتم كنتم بهذه الهيئات، وهذه الأشكال والصّور من الجاهلية الجهلاء. **فأنار الله بأبي، محمّد ظلمها** ، وخرجتم من تلكم الظلمات حتى أصبحتم خير أمّة أخرجت للناس، لكن

---

[1] - النّحل: 83.
[2] - النّمل: 14.
[3] - الرّوم: 30.

بشرط أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر[1].

إذاً أنار الله كلّ هذه الظّلمات وكلّ هذه الأوضاع بأبي، محمّد (ص)، وهذه إشارة إلى ظهور النّور المحمّدي في عالمنا الإمكاني.

ثمّ قالت (س): **كشف عن القلوب بهمها.**

البهم: المشكلات [2] والمعظلات والمتشابهات، وهي إشارة إلى المشكلات الإعتقادية، كان النّاس في اعتقاد فاسد، وانعقدت قلوبهم على الإنحراف في العقيدة وفي الفكر، وإذا بالمصطفى يكشف عن القلوب تلك البهم، أي تلك المشكلات والمشتبهات.

ثمّ قالت عليها السلام: **وجلّى عن الأبصار غممها.** الغمم. السّحاب، أو الغمام، أي فتح لك بالبصر والبصيرة، أن تنظر الواقع بما هو، ببركة كون المصطفى (ص) بين الخلق، ولذا يكون المصطفى أفضل الخلق، وأفضل من جميع الوجود بما فيه الكعبة.

وصلني كتاب لكاتب من الكتّاب المعروفين من أهل السنّة في الكويت يخاطب علماء نجد بأثنين، أو ثلاثة وخمسين إشكالاً، يخاطبهم ويذكر الإنتهاكات الصّريحة لقبر المصطفى (ص)، وينقل مطلباً عن ابن القيم، عن شيخ الحنابلة واسمه ابن عقيل، يقول: سئل عن حجرة النّبيّ أهي أفضل أم الكعبة؟

فقال: إذا كان المراد بالحجرة كما هي، دون المصطفى وجسد المصطفى وشخصه فالكعبة أفضل، أمّا إذا كانت الحجرة قد ضمّت جسد المصطفى فهي ـ أي الحجرة ـ ومن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش ومن الكرسي ومن الأفلاك ومن الأملاك كُلّها على الإطلاق.

---

[1] ـ اقتباس من قوله تعالى من سورة آل عمران: 110.

[2] ـ انظر لسان العرب: 1 / 524.

وهذا إقرار واعتراف مهمّ، ثمّ يقول: أنتم تعترضون على تسميّة الحرم بالحرم النّبويّ، ألم تسمعوا قول الله تعالى بأنّ النّبيّ (ص) نور.

ومثل هذه الأقوال الآن بدأت (((**سنريهم آياتنا في الآفاق**)))[1] الآن بدأوا يكتبون هذه الحقائق، ولابدّ أن يكتبوها قبل فوات الأوان، وبيان حقائق شخصية المصطفى (ص)، يعني النّبيّ فوق الكعبة، وفوق العرش والكرسي، وهذا مذكور على لسان الأئمة واتباعهم ومدارسهم الولائية قبل اكثر من(1400) سنة وحتى زماننا هذا.

ثمّ قالت، صلوات الله عليها: **فأنار الله بأبي، محمّد (ص) ظلمها، وكشف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها.** لاحظ دقة التّرتيب، ألفت نظركم إلى نكتة بالغة الأهمية، ابتدأت بالظّلمة، ثمّ بالغمم، تريد (س) أن تبين بأنّ الإنارة تتحقق بكسح الظّلمات عن القلوب.

فإذا تخلّصت من هذه الرّواسب الفاسدة المتعلقة بهذه الأمّة، خصوصاً ما يروى من روايات عجيبة في تجسيد الله، والسّكوت عليها أبشع من القول فيها؛ لأنّ هذه عقائد لا يصحّ المجاملة فيها، إذا وصلت الأمور إلى مسألة الإعتقادات وإلى مسألة ما يتعلق بالأنوار الإلهية، وبنور الأنوار ومنوّر الأنوار، وتطلق عليه في الصّحاح ـ كما يسمى عندهم ـ عبارات شائنة وصعبة، خصوصاً فيما يتعلق بضرب الدّفوف والغناء في بيت رسول الله، ورسول الله جالس[2]، من يقبل هذا المنطق؟ أي عاقل، وأي إنسان يقبل هذه المعاني؟ هذا الذي يقول فيه القرآن الكريم: (((**ثمّ**

---

[1] - فصّلت: 53.

[2] - انظر الجامع الصّحيح للترمذي: 5 / 580 ح 3691، صحيح مسلم: 7 / 115، المسند الجامع: 20 / 314 ح 17182، مسند أحمد بن حنبل: 2 / 53 و95، سير أعلام النّبلاء: 3 / 75 وغيرها من الصّحاح والمسانيد.

دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى)))[1] أُنظر إلى هذه العبارات الشّائنة التي يطلقوها على أعظم خلق الله تعالى، وهذا لا يمكن السّكوت عليه لأنّ السّكوت عنه خيانة قد نهى الله عنها، قال تعالى: (((**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرّسول**)))[2] لا تخن الله ولا رسوله عندما تسمع عبارات شائنة، هذا هو منطقهم، وهذا منطقنا.

ثمّ قالت صلوات الله عليها: **فقام بالنّاس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية**، كانت الأمّة منحطّة، وكانت رؤوسها متدليّة نحو الأرض، فلمّا جاء النّبي (ص) رفع هذه الرّؤوس المنحطّة والمندكّة في الخلود إلى الأرض، رفعها لتنظر إلى ملكوت السّماوات والأرض.

فقام بالنّاس بالهداية، وأنقذهم من الغواية. أي الضّلالة والحيرة وما إلى ذلك.

وبصرهم من العماية. عمى القلب، أي فتح قلوبهم على أنوار الملكوت، وهداهم إلى الدّين القويم، ودعاهم إلى الطّريق المستقيم، تريد (س) أن تبيّن أنّ النّبيّ (ص) هدى النّاس إلى الدّين القويم، ولم تقتصر الهداية على معنى الإراءة، لأنّ الهداية تنصرف إلى أمرين:

١ - إمّ بمعنى الإراءة، أي يريهم الحقّ، يريهم الواقع.

٢ - وإمّا أن تكون بمعنى الإيصال إلى الواقع.

فالنّبيّ (ص) انّما حقّق الأمرين لهذه الأمّة، لم يحقق الإراءة فقط، وإنّما أوصلهم بنفسه، كمن يأخذ الأعمى بيده ويوصله إلى هدفه، هكذا أخذ الأمّة بيده، بيد القدرة إلى بارئها، وأوصلها إلى المراد، إذ هداهم إلى الدّين القويم، فما معنى

---

[1] - النّجم: 8 - 9.
[2] - الأنفال: 27.

أنّه دعاهم إلى الطّريق المستقيم؟

أرادت (س) أن تبيّن لهم وللأجيال إلى ما شاء الله تعالى، بأنّ الدّعوة إلى الطّريق المستقيم هي في قوله تبارك وتعالى: (((**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً**)))[1] متى رضى؟ بعد إكمال الدّين، ولن يكمل الدّين إلاّ بولاية أمير المؤمنين (ع) بإجماع العقلاء والمؤمنين.

لاحظ دقة التّعبير، أرادت (س) أن تبيّن بأنّ الأمر الأوّل انفتح، كلّ ما يتعلق بالدّين أبلغه وبيّنه وفصّله وشرحه بكلّ شراشرة للناس، ثمّ وقف الدّين منتظراً ركنه الرّكين، وإذا بالنّداء: (((**بلغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**)))[2].

ما معنى قوله تعالى: (**وإن تفعل فما بلغت رسالته**)؟ ماذا تفهم من هذه الكلمات؟ هل هناك شيء لم يبلّغه ويبيّنه الرّسول (ص)؟ ألم يبين تفاصيل الحج وكلّ ما يرتبط به ارتباطاً تامّاً وأصولياً وتفريعياً؟

إذاً ما الذي بقي ولم يبلّغه الرّسول؟

ذلك هو ولاية مولانا أمير المؤمنين، فإذا لم تبلّغ أمر الولاية لعليّ (ع)، فلا نبوّة، ولا ديانة، ولا رسالة، ولا سماء، ولا أرض، هنا سر لا ينكشف بالمرور عند الآيات فقط، وإنّما بالوقوف عندها والتّدبر فيها قال تعالى: (((**أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها**)))[3].

ثمّ تقول، صلوات الله عليها ـ بعدما بيّنت إكتمال الدّين بالدّعوة إلى الصّراط المستقيم، والدّعوة إلى الصّراط بلا إشكال بمرويات المسلمين هي دعوة إلى ولاية أمير المؤمنين (ع)، لأنّه الصّراط إلى الله، والهادي والدّال عليه:

---

[1] ـ المائدة: 3.
[2] ـ المائدة: 67.
[3] ـ محمّد (ص): 24.

ثمّ قبضه الله إليه، قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار.

ما هو القبض؟ ومن هو القابض؟

إسناد قبض روح الرّسول الأكرم (ص) إلى الله تعالى بالمباشرة، لا بالإيكال إلى ملك الموت أو غيره، وإنّما قالت قبضه الله إليه، يعني هو الذي تصدّى لقبض روح النّبيّ (ص).

رأيت هذا النّص في كتب أهل السّنة فيما يتعلق بطريقة قبض روح النّبيّ (ص) والإمام علي (ع).

عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ص): لمّا أسري بي مررت بملك جالس على سرير من نور وإحدى رجليه في المشرق والأخرى في المغرب، وبين يديه لوح ينظر فيه، والدّنيا كُلّها بين عينيه، والخلق بين ركبتيه. ويده تبلغ المشرق والمغرب. فقلت: يا جبرئيل، من هذا؟ فقال: هذا عزرائيل، تقدّم فسلم عليه فتقدّمت، فسلمت عليه فقال: وعليك السّلام يا أحمد، ما فعل ابن عمّك عليّ؟ فقلت: وهل تعرف ابن عمّي علياً؟ قال: كيف لا أعرفه وقد وكّلني الله بقبض أرواح الخلائق ما خلا روحك وروح ابن عمك، عليّ بن أبي طالب، فإنّ الله يتوفاكما بمشيئته[1].

رجوع الشّيء إلى أصله، وهل يجرأ مثل عزرائيل خادم تراب المصطفى، على قبض روح النّبيّ؟! إنّ عزرائيل وأمثاله صاروا بالنّبيّ، ولولا إمضاء النّبيّ ما صار ملك الموت، ولا صار ملك الرّزق، لنعرف هذه الحقائق التي يقول عنها القرآن الكريم: (((**ونفخت فيه من روحي**)))[2] ما هذه الرّوح التي كانت الواسطة في النّفخ؟ على الإنسان أن يخلّص نفسه من هذه الظلمات والجاهليات.

---

[1] - ذخائر العقبى للطبري: 64 (دار المعرفة - بيروت).

[2] - سورة ص: 72.

قالت (س): **ثمّ قبضه الله قبضة رأفة واختيار**. يعني،أنّ الله تعالى عرض على النّبيّ قبض روحه باختياره فارتضى أن تلتحق بمن كان مستأنساً به في دائرة قاب قوسين أو أدنى[1].

ثمّ قالت (س): **رغبة وإيثار**. استأثر الله به، هذا الإيثار راجع لله تعالى، يعني، آثر الله كونه معه على كونه معنا، لأنّنا لم نعرف حقّه وقدره.

قد حفّ بالملائكة الأبرار، زفّة إلى أعلى علّيّين، وهناك ما على الإنسان إلاّ التّسليم.

قالت (س): **ورضوان الرّبّ الغفّار، ومجاورة الملك الجبّار**. الملك الذي بيده كلّ شيء، الجبّار الذي تجبّر على كلّ ما سواه.

إذاً المجاورة المراد بها المجاورة المعنوية لا المادية، يعني لا يحجبه عنه حاجب[2].

ثمّ تقول: **صلّى الله على أبي، نبيّه وأمينه وخيرته من الخلق ورضيّه، والسّلام عليه ورحمة الله وبركاته**، فإذا قالت فاطمة صلّى الله، فهذه الكلمة ليس لها عدد أو إحصاء.

هذه كلمات فاطمة الزّهراء، صلوات الله عليها ـ التي ملأت الوجود نوراً وضياءً.

---

[1] ـ اقتباس من قوله تعالى من سورة النجم: 9.

[2] ـ انظر تفسير العياشي: 2 / 333 - 335 (الأعلمي - بيروت).

البحث التّاسع

موضوع البحث:

أبحاث في أسرار الإيمان وانطباقه على الولاية الكبرى وحقائق هامّة في الدّين والرّسالة الإلهية.

قالت مولاتنا فاطمة الزّهراء (س) في خطبتها الخالدة:

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم حقّ له فيكم، عهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم كتاب الله النّاطق، والقرآن الصّادق، والنّور الساطع، والضّياء اللاّمع، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، متجليّة ظواهره، مغتبطة به أشياعه، قائد إلى الرّضوان أتباعه، مؤدّ إلى النّجاة استماعه، به تنال حجج الله المنوّرة، وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيّناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة.

حديث الزّهراء، صلوات الله عليها، في هذه الخطبة الغرّاء في جانبين وليس في جانب واحد، كما فهم بعض الشّراح من هذه الخطبة التّاريخية التي هزّت السّماوات ومن فيها، والأرضين ومن عليها، في هذا الكلام البليغ العربي المبين، بيّنت محورين هامّين:

المحور الأول: في كتاب الله النّاطق.

المحور الثاني: كتاب الله الصّامت.

وهنا إشارة في غاية الأهمية والدّقة.

التفتت إلى أهل المجلس، وكانت في حظائر معدن القدس، لأنّها خلقت في التّوحيد الخالص والرّبوبية التّامة، وكان النّداء والخطاب لمن يعرف معاريض كلام أهل اللاهوت والجبروت، فلما أتمّت فصائل وأركان وبيان كلّ ما يرتبط بالتّوحيد الخالص، ثمّ النّبوة وما يرتبط بها من مواقف، التفتت إلى أهل المجلس، والإلتفاتة فسّرت بعدة تفسيرات، منها:

1- أنّها علا صوتها باتجاههم. لمّا تلتفت إليهم، تتوجه إليهم بمقاديم البدن وتخاطبهم، وكان بينهم وبينها ملاءةً، فإذاً، الإلتفاتة كانت بعبارات موجّهة إليهم.

2- أو أنّها أومأت إليهم من خلال الكلام بما يفيد أنّ الخطاب معهم، بدليل أنتم عباد الله، التفتت إلى أهل المجلس، لأنّها كانت مع حاضر المجلس؛ لأنّ المجلس بحسب الواقع كان مكوناً إذاً صحّ التعبير بهذا الكلام من أمرين:

1- حاضر المجلس. 2- والمجلس الحاضر.

والمقصود أنّه مرّة يكون الحضور النّاس، والمراد بهم هؤلاء الذين حضروا من المهاجرين والأنصار وغيرهم، وأخرى كان الخطاب مع حاضر المجلس الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء.

وهذا السّرّ تجده في القرآن الكريم في قضية الخضر مع موسى على نبينا وآله وعليهما السلام، حيث انّ نظر موسى كان إلى المجلس الحاضر، إلى الدّنيا، كان يعترض على الخضر قتل الغلام، وخرق السّفينة، وهدم الجدار، اعترض على الخضر في فعاله، لأنّه كان مأموراً بحفظ ظاهر المجلس، بحفظ الشّريعة الظّاهرة، وكان الخضر يتعامل معه على أساس ما جاء في القرآن الكريم حيث قال:

(((**سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً**)))[1]، وذلك بأنّ الفعل كان منسوباً إلى حاضر المجلس وهو الله جلّ وعلا، وهذا المعنى يشير إليه القرآن الكريم: (((**وما فعلته عن أمري**)))[2] وإنّما بالأمر المولوي، بالأمر الإلهي، فكذا فيما نحن فيه من خطاب الزّهراء (س).

كان حديثها مع الحاضر الذي لا تخفى عليه خافية، ثمّ التفتت إلى المجلس، المجلس الحاضر، وبهذا تتضح لك هذه النّكتة البليغة العرفانية المتينة في واقعها، بأنّه يختلف الكلام تارة مع حاضر المجلس، ومع مجلس الحاضر تارة أخرى.

فلمّا انتهى كلامها، صلوات الله عليها: في بيان الحقائق الرّبوبية، والمعاني التّوحيدية الخالصة، التفتت إلى من كان في عالم الإمكان والتّكوين مربوباً، ومخلوقاً، وموجوداً.

وقالت (س): **أنتم عباد الله**، أي، يا عباد الله، وحذف ياء النّداء في أروع درجات البلاغة، تريد تنبههم بحذف الياء **أنتم عباد الله**، يعني، مهما تكونوا فلا تخرجوا من دائرة عبودية الله.

ثمّ قالت (س): **نصب أمره ونهيه**. أي، أنّكم المنصوبون للعِلم المصبوب والعَلم المنصوب، على أي شيء نصبتم؟ على أمره ونهيه، يعني، علّة إيجادكم، هي عبارة عن امتثال أمر الله واجتناب نهيه، هذه النّقطة الأولى التي ترسم وجودكم يا عباد الله.

إذاً ابتدأت، بأنّكم منصوبون لا للخلاف، لا للتمرد على دائرة الأمر والنّهي المولويين، وإنّما في إطار وحدود العبودية بالطّاعة للأوامر والإنتهاء عمّا نهى عنه. قالت (س): **أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه**، أي، المنصوبون لأمره ونهيه.

---

[1] - الكهف: 78.
[2] - الكهف: 85.

ثمّ تقول (س) ـ بعد أن صرتم في هذا الموقع ـ: **وحملة دينه ووحيه** : كلمات تزرع الأمل والثّقة في النّفوس، بأنّكم لستم فقط أهل العبادة، وقد نُصبتم للطاعة والإمتثال للأمر والنّهي، وإنّما صرتم في مقام حملة دينه، كلمات ليس المقصود منها ذلك الحشد، وإنّما كلّ حشد، وكلّ جماعة، وكلّ فرقة من أمّة محمّد ابن عبد الله (ص).

قالت (س): **وحملة دينه ووحيه**. هنا الكلام عن حملة الدّين وحملة الوحي.

1- **حملة الوحي** : أي، الرّسالة، بمجموعها، بما لها من محتوى عقائدي في الأصول، والفروع، هذا معنى العبارة الإلهية العظيمة حملة الوحي.

إذاً حملة الوحي، بمعنى، أنتم حملة الرسالة بمجموعها.

2- **حملة الدّين**. ليس المراد هنا بالدّين مجموع الفروع وما إلى ذلك من صلاة وصوم وما أشبه، وانّما المحتوى العميق والدّقيق لمفهوم الدّين في قوله تعالى: (((**فأقم وجهك للدّين حنيفاً**)))[1]، ما المراد بالدّين هنا؟

هو عبارة عمّا يتوجّه به الوجه حال كونه حنيفاً، يعني، غير مائل، لأنّ الحنيف ليس فيه ميل، حنيفاً مستوياً، أي، لم يكن فيه ميل، فمثلاً تقول: ساق حنيفة، أي، مستوية غير مائلة، لا أنّها مالت، لأنّها إذا مالت خرجت عن الحنفية، فالمراد هنا بالحنيف أي، المستوي بتلكم الحالة، القائم المتوجّه للدين، ما معنى قائماً؟ أقم وجهك للدّين.

قال الإمام الباقر (ع): **الدّين هو ولاية أمير المؤمنين والمعصومين** (عليهم السلام)[2].

---

[1]- الرّوم: 30.

[2]- أورده الاستر آبادي في الآيات الظّاهرة: 427.

وتجهد هذا المعنى في القرآن الكريم أيضاً. قال تعالى:

(((**وجّهت وجهي للذي فطر السّماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين**)))[1]، ولكن بإقامة الوجه باتجاه الوجهة التي بها نتوجه إلى الله، والوجهة هي الكعبة، والكعبة سرّها وحقيقتها وقيمومتها وكيانها بالنّور العَلَوي السّاطع فيها، فلا أحد من الخلق يتوجّه إلى هذه الكعبة، بما هي من جدران أربعة، وأركان معروفة، وإنّما التّوجّه حقيقة التّوجّه إلى الوجهة التي قال الله تعالى فيها: (((**فأقم وجهك للدّين**)))[2]، أي الولاية التي رسمت على الخلائق في متن الكعبة، فلا يقصد الله أحد من الخلق إلاّ بتلك الوجهة، وذلك الدّين الذي لا تقوم لك ديانة إلاّ بالوجهة الولائية النّورانية العَلَوية، وهذا حقّ اليقين في كتاب الله المبين.

إذاً، نريد أن نقول: العبادة لله وحده لا شريك له، ولكنّه سبحانه أمرنا أن نأتي البيوت من أبوابها، وأن نتوجّه إلى الله من خلال الوجهة التي أمرنا بالتّوجّه إليها، وهذا هو مراد الله تعالى من أنّ كينونة الكعبة هي الوجهة لكلّ الخلائق، وهذا هو السّر، والعبودية لله، ولا تجد شيعيّاً على الأرض على الإطلاق يقول: انّنا نعبد غير الله، والذي يدّعي غير هذا الكلام فهو كذّاب، ولا يملك أي دليل، نحن لا نتخذ أرباباً من دون الله، وانّما نعبد الله، ولكن أبي إلاّ أن نقصده من خلال الكعبة، والكعبة حقيقتها الواقعية، وحقيقتها الباطنية هي الولاية لأمير المؤمنين (ع)، هذه الحقيقة التي نفهمها من خطاب الزّهراء (س).

قالت (س): **وحملة دينه**. بمعنى، حملة الولاية التي بها استقام الدّين.

---

[1] - الأنعام: 79.

[2] - الرّوم: 30.

ما هي حقيقة الدّين؟

هل حقيقة الدّين بمعنى الصّلوات والفروضات حسب؟ هذا تفسير قشري لا يركن إليه عاقل.

إذن، ما هي حقيقة الدّين في القرآن الكريم؟

إنّ حقيقة الدّين وروح الدّين متمثلة في هذه الآية المباركة: (((**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**)))[1]. يعني لا رسالة، لا نبوّة، لا أنبياء، لا أوصياء، لا عرش، لا قلم، ولا لوح إلاّ بإبلاغ ولاية أمير المؤمنين (ع)، (((**فأقم وجهك للدين**)))[2]، إن لم يفسروا بهذا التّفسير فهم كالأنعام، بل هم أضل، لأنّهم لم يفهموا من القرآن شيئاً، لا تحرفوا القرآن إلى المشارب والمذاهب التي تميلوا إليها، بل توجّهوا بها إلى الله.

هل أتوجّه إلى الله بأبي هريرة وأمثاله وأترك علياً وآل علياً؟! أتمسك بإنسان كان يلعب مع الهرّة، وأترك من كان بين يدي الله، وكان أخاً لمن قد عرج حتّى وصل إلى مقام قاب قوسين أو أدنى؟! (((**أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات ليس بخارج منها**)))[3].

على الإنسان أن يخرج من الظلمات، ولا يتعبّد بما قاله فلان وفلان، أين صادق الآل؟ وأين الحسن المجتبى وأين الباقر؟ وأين السّجاد؟ حيث اعترف كلّ أئمة المذاهب بأنه لولا الباقر ولولا الصّادق ما استقام دين على الأرض. أنظر مالك بن أنس ماذا يقول عن الإمام الباقر (ع)، يقول: ما رأيت ولا خطر على قلب بشر، ولا مرّ على ذهن إنسان أفضل فقهاً وعلماً من جعفر بن محمّد الصّادق (عليهما السلام) [4]، إذاً أيّهما الأولى اتباعه والتّمسك به؟ هذا يقرّ ويعترف إلاّ تكفي هذه الشّهادة؟

---

[1] - المائدة: 67.
[2] - الرّوم: 30.
[3] - الأنعام: 122.
[4] - انظر مناقب آل أبي طالب لإبن شهر آشوب: 4 / 248 (دار الأضواء - بيروت).

الغريب أنّك تجد بعض النّاس يحلّ ويحرّم، ويفعل ما يفعل ويقنن، ويأتي بالمبتدعات العجيبة في الدّين، ولا يعدّ هذا في نظر البعض مبتدعاً، ولكن إذا بكينا على مصائب آل البيت، صلوات الله عليهم، قالوا: أنظروا إلى بدع الشّيعة، هذا والقرآن يقرر البكاء. يعقوب (ع) عندما فقد يوسف قال ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ (((**يَا أَسَفَى على يُوسُفَ وَأَبيَضَّت عَينَاهُ مِنَ الحُزنِ**)))[1]، فصار أعمى على فقدان ابنه، وهو يوسف الغائب، الحيّ، الذي سيرجع إلى أبيه ملكاً متربعاً على العرش، وأمّا أهل بيت الرّسالة فبين مسموم ومنحور، وهم في ذلك أبكوا السّماوات والأرضين، فهل البكاء عليهم بدعة؟ ما هذا العداء، لماذا لا يستقيم الإنسان؟!

الزّهراء تخاطبكم وتقول: **وحملة دينه**. حملة الأمانة، (((**إِنَّا عَرضنَا الأَمانَةَ على السّماوَاتِ والأَرضِ**)))[2]، هذه الأمانة هل عرفتها؟

هناك من يقول: إنّ الأمانة هي: لا إله إلاّ الله. ورأي يقول: محمّد رسول الله. ورأي يقول: سبحان الله. وآخر يقول: الحمد لله.

الأمانة التي أُمرنا أن نؤدها إلى أهلها، قال تعالى: (((**إنّ الله يأمُركم أَن تُؤَدّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهلِهَا**)))[3]، والأمانات التي غرضت ليست ألفاظاً، وإنّما هي حقائق نورانية تغشّت بأنوارها كلّ عوالم الملكوت والنّاسوت، وتلك الأنوار كما يفيد الشّيخ الصّدوق في (معاني الأخبار) قال: الأمانة أنوار آل محمّد، صلوات الله عليهم[4].

---

[1] - يوسف: 84.
[2] - الأحزاب: 72.
[3] - النّساء: 58.
[4] - معاني الأخبار للصدوق: 108 - 109 (مؤسسة النّشر الإسلامي).

الأمانة: حقيقة وجودية تمثلت بشخص المصطفى، وخير من في الورى. هذه هي حقيقة الأمانة، قال تعالى: (((**فأبين أن يحملنّها وأشفقن منها**)))[1].

قالوا: إنّ هذه الأمانة تحتاج إلى قدرة وقابلية عظمى، فإذا كانت الأمانة بمعنى الذّكر والتّسبيح، أليست الجبال تسبح مع داود؟ قال الله تعالى (((**إِنَّا سَخَّرنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحنَ بِالعَشيِّ والإِشرَاقِ**)))[2] وقال تعالى في آية أخرى: (((**كلّ قَد عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسبِيحَهُ**)))[3] فإذا كانت الأمانة بمعنى الذّكر والتّسبيح، فهل هذه الجبال محتاجة لأن يعرض عليها هذه الأمانة؟ علما بأنّها ذاكرة ومسبّحة، فما الحكمة حينئذٍ من هذا العرض؟ كيف يعرض عليها أمانة ويطالبها بشيء هو فيها؟ لأنّه لا شيء إلاّ ويسبح ويذكر الله (((**وإِن مِّن شَيء إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**))[4] إذاً المطلوب فوق الصّلاة وفوق التّسبيح، وأساس الصّلاة وروح الصّلاة هي أمانة آل محمّد، صلوات الله عليهم.

وقالت صلوات الله عليها: **وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم.**

الله تعالى أعطاكم أمانة عليكم رعايتها قال تعالى: (((**قَدْ أَفلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَد خَابَ مَن دَسَّاهَا**)))[5].

استأمنك قال لك: سأجعلك إنساناً وأركّبك في أحسن تركيب، وأجعلك في أحسن صورة وأفضل مكانة، ولكن بشرط أن تحافظ على هذه الأمانة وتكون

---

[1] - الاحزاب: 72. قال تعالى: (((**إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنا وأشفقن منها وحملها الإنسان**...))).

[2] - سورة ص: 18.

[3] - النّور: 41.

[4] - الاسراء: 44.

[5] - الشّمس: 9 - 10.

أميناً عليها، وأنت مستأمن. فإذا أستأمنك أحدٌ أمانة فعليك شرعاً وإنصافاً ووجداناً وعرفاً أن تحافظ على هذه الأمانة، فكيف إذا استأمنك الجبّار؟

حتّى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم ، يعني، كانوا في غليان، كلّ كلمة تنطقها الزّهراء (س) كانت عبارة عن نار تولد فيهم الغليان والفوران. ولذلك لمّا تقول لهم: أمناء الله، ليس فقط هم المعنيين بها، وإنّما نحن مشمولون أيضاً.

ثمّ قالت: **أمناء الله على أنفسكم**. الكلّ مسؤول عن نفسه أمام الله، يسأل المرء عن هذه الأمانة إلى أين سقاها؟ إلى أي شيطنة؟ إلى أي إثم؟ إلى أي فساد وظلم؟ أنت مستأمن، إستأمنك الجبّار، أنت مسؤول عن هذه الأمانة أمام الله. فبما أنكم ختتم الأمانة فانتظروا الدّماء تسيل! وانتظروا الفجائع في كلّ دار وفي كلّ بيت! كلّ المعارك التي وقعت: النّهروان، الجمل، وصفين، حصلت نتيجة عدم حفظ أمانة الله من قبل النّاس.

يعني، أنا مسؤول عن هذه الأمانة في كلّ لحظة أسوقها بعقلي لا بشهوات نفسي، فالنّفس إذا أُعطيت كلّ ما تريد فإنّها تجرّ إلى ويلات وإلى مصائب.

ثمّ قالت (س): **وبلغاؤه إلى الأمم**. أنتم أصحاب راية، أنتم الذين ترفعون رايتكم للعالم شرقاً وغرباً، وجهوها إلى العالم ليراها العالم، فإنّهم سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الحضارة والعصرنة المقيتة شديد، لا تعلو راية على راية الدّين، وإلاّ ذلّ المسلمون، فكيف إذا رفعت رايات في بلادنا من هؤلاء اليهود، عجّل الله هلاكهم والإنتقام منهم.

ثمّ قالت (س): **زعيم حقّ له فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم.**

وعهد قدّمه إليكم. يعني، بيّنه، أنزله، وضعه على متن رسول الله حتّى رفع يده ويد عليّ، زبان بياض إبطيهما، وهو يقول: **ألا من كنت مولاه فهذا عليّ**

مولاه، اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله[1].

قالت (س): **وبقية استخلفها عليكم**. البقية، هي: **كتاب الله النّاطق**، يعني، المراد بالنّاطق هم آل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين.

والقرآن الصّادق، والنّور السّاطع والضّياء اللامع . يعني، أنوارهم وضياؤهم تجلّت على الآفاق وعلى الهياكل وعلى السّماوات وعلى الأرضين، وعرضت على من كان في العرش وما بطن والثّرى وما حوى.

ثمّ قالت (س): **بيّنة بصائره**. البصائر، المراد بها الحجج، كلّ شيء في القرآن، بيّن، قال تعالى: (((**فِيهِ آياتٌ بَيِّنات**)))[2] وفي آية أخرى: (((**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ**)))[3]، فكيف يرتاب النّاس في معاني القرآن؟!

تقول الزّهراء (س): **بيّنة بصائره، منكشفة سرائره**. المقاصد والأغراض لا تخفى، مكشوفة، يراد لها قلب، يراد لها عقل، حتّى يفهم مراد القرآن من الآيات قال تعالى: (((**وَحَمَلناهُ على ذَاتِ ألوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجرِي بأعينِنا**)))[4]، ليتأمّل الإنسان ما هي الأعين التي أجرت سفينة نوح؟ وكيف كان جارية بأعيننا؟ ويقيناً أنّ الله عزَّ وجلَّ منزه عن الجسيمة، وإلاّ كان محدوداً وخلوقاً وما إلى ذلك من محذورات التّشبيه والتّجسيم.

إذاً أعيننا عبارة عن وجه الله، عبارة عن وليّ الله، عبارة عن أنوار الله محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم.

---

[1]- معاني الأخبار للصدوق: 67.
[2]- آل عمران: 97.
[3]- آل عمران: 138.
[4]- القمر: 13 - 14.

وهذا ليس غلواً، بل هذا عين الحقيقة التي لا غبار عليها. انظر إلى مرويات العامّة فضلاً عن الخاصّة في ذلك. روي عن النّبيّ (ص) أنّه قال: **كنت نبيّاً وآدم بين الرّوح والجسد** أو في عبارة أخرى: **كنت نبياً وآدم بين الماء والطّين**[1].

كينونة نورانية، وليس بالضّرورة بدن، فأنت كنت في يوم من الأيام ذراً، ثمّ مثالاً، ثمّ تصبح جسداً آخر محشوراً، والله يعطيك جسدية خاصّة، قال تعالى: (((**فتمثل لها بشراً سوياً**)))[2]، التّمثل كان للملك، أفلا يكون التّمثل للمصطفى والمرتضى؟! إنّ وجود النّبيّ أي نبيّ أي مرسل ما هو إلاّ ظلّ ظليل لشخص الحقيقة المحمّدية الشّاخص في هذا الوجود.

الله تعالى خالق عشرات الأكوان كلّها مدّخرة لهم، والله غير محتاج لشيء، فهو غنيّ عن العالمين، الله تعالى خلاّق، يعني لا تنقطع عنه صفة الخالقية.

ثمّ قالت صلوات الله عليها: **والنّور السّاطع والضّياء اللامع بيّنة بصائره.**

افتح قلبك على القرآن، وانظر في كلّ حرف، تجده مرسوماً بنور عليّ وآل عليّ (عليهم السلام)؛ لأنّ القرآن مرآة، والصّورة التي انعكست فيها شخصية الإسم الأعظم الجامعة لصفات الجلال والجمال والكمال، قال تعالى: (((**انّما وَلِيّكُمُ اللهَ ورَسُولُهُ وَالذينَ آمَنُوا الذين يُقِيمونَ الصّلاة ويُؤتُونَ الزّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ**)))[3].

إنّما، تفيد الحصر. يعني، فقط هؤلاء. وهم راكعون يعني، عليّ الرّاكع هو الوليّ، وهو المعني بالآية دون غيره من أفراد الأمّة.

---

[1]- انظر مستدرك الحاكم: 2 / 609، كنز العمال: 11 / 409 ح 31917، سنن الترمذي: 5 / 546 ح 3609 كتاب المناقب، كشف الخفاء للعجلوني: 2 / 191، الحاوي للفتاوي للسيوطي: 2 / 260 وغيرها.

[2]- مريم: 17.

[3]- المائدة: 55.

أشهد أنّ علياً أمير المؤمنين وليّ الله، أورد الشّيخ عبد النّبيّ العراقي في كتابه رسالة الهداية، عن الشّيخ عبد الله المراغي المصري في كتابه السّلافة في أمر الخلافة قال:

إنّ رجلاً دخل على رسول الله (ص)، وقال: يا رسول الله، إنّ أباذر يذكر في الآذان بعد الشّهادة بالرّسالة الشّهادة بالولاية لعليّ ويقول: أشهد أنّ علياً وليّ الله. فقال (ص): كذلك أونسيتم قولي في غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه؟ فمن ينكث فإنّما ينكث على نفسه[1].

والله، لو لم تكن هذه الكلمة في مآذن المسلمين لبُتر القرآن الكريم، إنّ ركن الأذان وشرط الإعتقاد هو أنّه عندما نقيم الأذان أن نقول: أشهد أنّ أمير المؤمنين وفاطمة الزّهراء وأبناءهم المعصومين أولياء الله، وفاطمة الزّهراء هي وعاء الإمامة، وهي الأصل، وهي وعاء الحجج وحُجّة الحجج[2]، وهذه في شريعتنا، ففاطمة من أولياء الله، لأنّها بضعة المصطفى وكلّ ما ثبت له (ص) فللبضعة مثله.

[1]- رسالة الهداية للشيخ عبد النّبب العراقي: 45. وانظر كذلك روضة المتقين لمحمّد تقي المجلسي: 2 / 264، سر الإيمان لمحمّد رضا النّجفي: 41، وغيرها من المصادر.

[2]- أنظر تفسير أطيب البيان: 13 / 226، عنه فاطمة الزّهراء (س) بهجة قلب المصطفى (الهمداني). 744 (نشر المرضية - إيران).

البحث العاشر

موضوع البحث:

بحث في مقاطع هامّة من خطبة الزّهراء، سلام الله عليها، وبيان بعض مراتبها في العوالم التّكوينية.

قالت فاطمة الزّهراء (س) في خطبتها الغرّاء:

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشّرك، والصّلاة تنزيهاً لكم من الكبر، والزّكاة تزكية للنفس ونماءً في الرّزق، والصّيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدّين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة.

الزّهراء (س) محور التّكوين والتّشريع، وهي القطب الذي تدور عليه رحى كلّ الأوضاع التّكوينية والتّشريعية، دليلنا: القرآن والسّنّة النّبويّة الشّريفة، وهو دليل تركن إليه النّفس ويؤيده ويعضده العقل السّليم.

فأمّا دليلنا من كتاب ربّنا فيما يتعلّق بوصفها، قطب هذا الوجود والموجود، قال تبارك وتعالى في آية المباهلة: (((**فَقُل تَعَالَوا نَدعُ أَبنَآءنَا وأَبنَآءَكُم ونِسَاءنَا ونِسَآءَكُم وأنفُسَنَا وأنفُسَكُم**)))[1].

[1]- آل عمران: 61.

كيف خرجت الصّديقة الكبرى (س) في هذا المسرح الشّهودي العاكس للمسرح الغيبي، لما هم عليه من مراتب ومقامات لدى الله تعالى، وعند مليك مقتدر، نزلت الصّدّيقة الكبرى (س) تتوسط القافلة النّورانية، التي كانت تضم أفضل الخلق على الإطلاق بإجماع العقلاء، وهم: محمّد (ص)، وعلي (ع)، والحسن والحسين، وفاطمة، صلوات الله عليهم أجمعين، بإجماع المفسّرين، وبإجماع من دون حقائق التّاريخ بإنصاف وكتب ورقّم هذه الحقيقة التي لا تخفى[1].

لي الغرض التّعرض لواقعة المباهلة، وإنّما أريد شاهداً منها كدليل على المقالة الأولى فيما يرتبط كونها القطب والمحور والمركز، كما سيتضح في معاريض كلامها: **وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة.**

فهم، صلوات الله عليهم، الميزان في النّظام والتّكوين والإرادة، وفي كلّ شؤون الحياة البشرية، والإنسانية، بل والمجموعة الكونية حتّى السّاكن منها.

إذاً كانت (س) بهذه الكيفية، كما ينقل جار الله الزّمخشري في تفسيره، يقول: خرج رسول الله (ص) في أعظم مباهلة في تاريخ الوجود البشري، وأعظم واقعة في تاريخ الإنسان، لأنّها مثّلت مفترق طريقين هامّين، طريق الهداية وطريق الغواية، وكان قادة هذا الطّريق، أي، طريق الهداية، هم أصحاب الكساء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، خرج رسول الله (ص) محتضناً الحسين (ع)، آخذاً بيد الحسن (ع)، وخلفه فاطمة (س)، وخلف فاطمة عليّ بن أبي طالب (ع)[2].

هذا التّنظيم ليس تنظيماً عشوائياً أو جزافياً، وإنّما تنظيم ملكوتي شهودي، نزل إلى واقع عالم الإمكان، لتكون الزّهراء (س) الوسط بين المتقدّم وهو مقام الختم للنّبوّات، وبين مقام الوصاية الحقّة، وهو مبدأ سلسلة الإمامة أمير

---

[1]- أنظر الدّر المنثور: 2 / 230، الكشاف: 1 / 368 وغيرها من المصادر.
[2]- الكشّاف: 1 / 368.

المؤمنين (ع)، فكانت هي الوسط، لأنّه لا تتشكّل هذه الهيئة الدّائرية، إلاّ بالقطب، والقطب فاطمة الزّهراء (س). لِم صارت خلف النّبي؟ لِم لم تكن متقدّمة أو متأخرة؟

أصبحت الوسط إشارة إلى أنّ الله أراد بها أن يبين بأنّ الحلقة التّامّة في وصل النّبوّات بأسرها، وبالإمامة وامتدادها لا يكون إلاّ عبر بضعة النّبيّ محمّد بن عبد الله (ص).

والدّليل على هذا العرض الشّهودي الغيبي، والمسرح الملكوتي السّاطع في عوالم الملك، أقوال المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، يقول صادق الآل (ع): (**فاطمة هي الصّدّيقة الكبرى، وعلى معرفتها دارت القرون الأولى**)[1]، ما من نبيّ مرسل، وما من رسول مبعوث إلى الخلق، سواء كانت البعثة إلى مقام معيّن أو على الإطلاق، إلاّ وكان مجال نبوّته ورسالته ودعوته متوقّفاً على معرفة أفضل الخلق، وأفضل الخلق محمّد وعليّ والحسن والحسين والبضعة الزّهراء والأئمة، صلوات الله عليهم أجمعين.

قال تعالى: (((**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعدِي اسمُهُ أَحمَد**)))[2]، كلّ الأنبياء كانوا يعلمون علم اليقين، ولديهم دراية قطعية، بأنّ المحور في هذا الوجود، والغرض من خلق هذا الوجود إنّما هم لا غير، وهذه الحقيقة أثبتناها من خلال القرآن الكريم.

وفي الحديث القدسي: **لولاك لما خلقت الأفلاك، ولولاها** (أي، فاطمة) **لما خلقتكما**[3] يعني، محمّداً وعلياً.

---

[1]- بحار الأنوار: 43 / 105.
[2]- الصّف: 6.
[3]- عوالم فاطمة الزّهراء (س) للبحراني: 11 / 26.

وهذه أحاديث صريحة، ولا نعني كونها القطب والمركز بأنّها أفضل من أبيها وبعلها، وإنّما نريد بذلك أن نبيّن بأنّ كل ما لأبيها، وكلّ ما لبعلها من مقام، مثل مقام سلوني قبل أن تفقدوني، كما نصّ علماء أهل السّنّة، ومنهم الهندي في كنز العمال، قال: قال عليّ بن أبي طالب (ع): سلوني، فما سالتموني عن شيء من العرض فما دونه إلاّ أخبرتكم به[1]، هذا المقام ومقام قاب قوسين أو أدنى لرسول الله، قال تعالى: (((**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوسَينِ أَو أَدنَى**)))[2] كلّه متوقّف تمام التوقف على موقف فاطمة الزهراء (س) في الحماية والدّفاع عن النّبوّة، بما لها من أسرار، وعن الولاية بما فيها من شؤونات لا يفقهها أحد من الخلق، كلّ ذلك متوقّف على موقفها وصلابتها وجهادها، فكانت شرارة النّبوّة، ومشعل الإمامة، ليبقى الإسلام بكلّيته أمام الخلق سالماً كاملاً.

وهذا هو الموقف الذي نفهمه من خلال آيات القرآن الكريم، ومن خلال النّصوص الواردة في كونها هي المحور في المعرفة، وأنّ النّداء الذي شرع في الأذان (حيّ على خير العمل)، يراد به معرفة وبرُّ فاطمة الزّهراء (س)، كما نصّ صادق آل محمّد (عليهم السلام).

الخطبة طويلة، والخطاب يحتاج إلى مجال أوسع، حتّى نستوعب كلّ ما لهذه الكلمات من معاني ورموز وأسرار، لا يقوى عليها الأبرار من المقربين، فكيف بنا نحن! على ما نحن عليه من حالات الجهل بمقاماتهم (عليهم السلام)، كيف يمكن للإنسان أن يبلغ العمق في كلمات فاطمة الزهراء، صلوات الله عليها، ولذلك كانت بعض الجماعات في العصور الماضية تدرّس خطبة الزّهراء (س)، للكبار والصّغار وتعلّم أسرارها، وكان بنو هاشم يوصون أولادهم بحفظها، كما يوصونهم بحفظ

---

[1]- كنز العمال: 13 / 165 ح 36502.
[2]- النّجم: 8 - 9.

القرآن الكريم، لأنّها أي، الزّهراء (س) عدل كتاب الله، ولأنّها القرآن النّاطق، كما أنّ القرآن كلام صامت موجود بين الدّفتين، وهو كتاب الله الكريم، فهم، صلوات الله عليهم، الكتاب النّاطق الذي به كلّ شيء يستبين، لم يبقوا شيئاً، كلّ شيء بيّنوه، وبيّنوا أحوالهم ومقاماتهم ومراتبهم.

في هذا المقام أقول كلمة، لو تبنّى الآباء والأمهات، الرّجال والنّساء، المعلّمون المهذّبون، لو تبنّوا عليم أنفسهم وابناءهم مدرسة أهل البيت، وبيّنوا أسرار هذه المدرسة، ودرّسوا الأجيال صفات آل البيت ومقاماتهم وأحوالهم وحالاتهم وشؤوناتهم، لاستطعنا أن نخرق الحجب كُلّها، لأنّه ما من إنسان ذكر النّبيّ وآله بذكر لفظي حتّى خرق الحجب السّبع، فكيف بمعرفة آل محمّد (ص)، معرفة تامّة كاملة.

والحديث حديث القلوب والأصول والقواعد التي إذا رسمت في قلوبنا، في أنفسنا، في أولادنا وأزواجنا ومجتمعاتنا لصرنا نأكل من فوق رؤوسنا ومن تحت أرجلنا قال تعالى: (((**وَأَلَّوِ أستَقَامُوا على الطّرِيقَةِ لأَسقَينَاهُم مَّاءً غَدَقاً**)))[1].

والطّريقة: هي عبارة عن الكلمة الموجودة في كتاب الله في قوله تبارك وتعالى: (((**فَاستَقِم كَمَا أُمِرتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**)))[2] ولذلك قال (ص): **شيبتني سورة هود، قيل لم يا رسول الله؟ قال: لهذه الآية**[3].

لماذا؟ لأنّ فيها طلب الإستقامة على الطّريقة، وإنّ القوم لا يستقيمون، سيرتدّ الكثير منهم، فلم يبق منهم إلاّ أربعة: سلمان وأبو ذر وعمّار والمقداد، ولو بقوا على الطّريقة، والمراد بها كما أشرت تلك التي عبّر عنها رسول الله بشيبتني. تلك الطّريقة هي التي أبت السّماوات والأرضون والجبال أن يحملنها وأشفقن

---

[1]- الجن: 16.
[2]- هود: 112.
[3]- الميزان للسيد الطّباطبائي: 11 / 68 (مؤسسة الأعلمي - بيروت).

منها، وهي الأمانة، وهي الكلمة التي قالها تعالى في كتابه العزيز: (((**اليَومَ أَكمَلت لَكُم دِينكُم وَأَتمَمْتُ عليكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِيناً**)))[1] فإكمال الدين وإتمام النّعمة كلّ هذا يكون بالولاية، يوم نصب أمير المؤمنين (ع) في مقام الولاية، هذا هو اليوم الذي قال فيه القرآن الكريم: (((**وإن لم تفعل**))) إبلاغ الولاية للخلق: (((**فما بلغت رسالته**)))[2]، يعني، لست برسول، ولست بنبيّ، ولا نبيّ من قبلك، ولا أحد من بعدك، ولا ديانة ولا ولاية ولا وصاية ولا إنجيل ولا زبور ولا توراة ولا فرقان ولا مئة وأربعة من الكتب السّماوية، ولا ثلاثمئة وثلاثة عشر من الرّسل[3]. والبقيّة من الأنبياء كُلّهم يزولون ويكون وجودهم هباءً منثوراً، إلاّ بإبلاغ ولاية أمير المؤمنين علي (ع).

هذا الرّسول الذي بيّن أسرار التّكوين على أحسن نظامه، والتّشريع على أحسن بيانه، كلّ شيء يتوقف، وكلّ شيء لا يكون إلاّ بالنّقطة، والنّقطة هي سرّ الولاية، والولاية متمثّلة بعليّ بن أبي طالب (ع)، وهذا تفسيره: **وأنا النّقطة التي تحت الباء**[4] بمعنى، أنّ النّقطة لا يمكن أن تُميّز، ولا يمكن أ، تكون باءً للنبوّة، ما لم تكن الولاية (((**وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**))) القرآن صريح قال تعالى: (((**وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا مِنكُم وَعمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم فِي الأَرضِ كَمَا استَخلَفَ الذين مِن قَبلِهِم وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُم دِينهُم الذي ارتَضَى**)))[5]

---

[1]- المائدة: 3.
[2]- المائدة: 67.
[3]- إشارة إلى عدد المرسلين وعدد الكتب السّماوية المنزلة. فقد أورد الشيخ المفيد في الإختصاص: 263، عن أبي ذر أنّه قال: يا رسول الله، كم بعث الله من نبيّ؟ فقال: ثلاثمئة ألف نبيّ وعشرين الف نبيّ، والمرسلون منهم ثلاثمئة وبضعة عشر، والكتب المنزلة مئة صحيفة وأربعة كتب، عنه البحار: 11 / 59 ح67.
[4]- ينابيع المودّة: 1 / 213، 3 / 212، وبحار الأنوار: 40 / 165.
[5]- النّور: 55.

وقال تعالى في آية أخرى: (((**اليوم أكمَلتُ لكُم دِينَكُم وأَتمَمتُ عليكم نِعمَتي وَرَضيتُ لكُمُ الإِسلامَ ديناً**)))[1].

هذا الذي ارتضاه يتحقق بظهور ولد الزّهراء (س) الحُجّة الفارس، فارس الحجاز الذي يشرف علينا كلّ ساعة وكلّ لحظة، الحُجّة المطلق، مهديّ آل محمّد، عجّل الله تعالى فرجه الشّريف، وهذه الحقيقة التي لابدّ من الإذعان إليها، نستدل عليها من القرآن قال تعالى: (((**وَقُلِ اعمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ وَالمُؤمِنُونَ**)))[2].

والمؤمنون هم آل محمّد، ما تقوله في رؤية الله لأعمال الخلق قله في رؤية النّبيّ، لأنّ العطف يقتضي أن يكون للمعطوف ما للمعطوف عليه وكلّ ما للمعطوف عليه للمعطوف، فعندما يقول اعملوا سيرى، حرف السّين إشارة للحال.

سيرى الله عملكم، يعني، كلّ ما لله من رؤية فعليه حاضرة في الدّنيا والآخرة بتمامها، هذه الرّؤية بلا استثناء يراها رسول الله والمؤمنون، آل محمّد، هذه مقامات آل البيت صلوات الله عليهم.

ثمّ قالت (س): **فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشّرك**. لماذا قالت الإيمان ولم تقل الإسلام؟ إشارة إلى أنّ حقيقة الإيمان متقوّمة بالإعتقاد بالولاية، حتّى يكون تطهيراً من الشّرك، ولذا فالإيمان التّام عملياً ونظرياً يصوّر أنّ الذي لم يوالهم ولم يعتقد بهم، ولم يؤمن بهم مع قوله بأنّه يؤمن بالله، فهذا باطنه شرك، وظاهره ولسانه توحيد، فلا يكون الإيمان إيماناً تامّاً، خالصاً مطهّراً للشرك الباطني والشّرك الظّاهري إلاّ بولاية أمير المؤمنين عليّ (ع).

قال تعالى: (((**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهم الذي ارتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعدِ**

---

[1]- المائدة: 3.
[2]- التّوبة: 105.

خَوفِهِم أمناً يَعبُدُونَنِي لا يُشرِكُونَ بي شَيئاً)))[1].

ما معنى: يعبدونني لا يشركون بي شيئاً؟

معنى ذلك عند ظهور الحقّ، عندما تجلّى الليل عن صبحه، ويسفر الحقّ عن محضه، إذا ظهر وسطع النّور المشرق، ثمّ جاء النّداء، أشرقت الأرض بنور ربها[2]، فاستغنى العباد عن ضوء الشّمس بظهور الحُجّة (ع)، وطهّرت الأرض بأسرها من الشّرك والكفر الظّاهري والباطني، وهذه هي حقيقة خطاب الزّهراء (س).

إلى أن تقول (س): **وطاعتنا نظاماً للملّة**. أي، للشريعة، للجماعة، للأمّة، للطريقة، خذوها مقطوعة دون أي ريب وشك، بأنّه لا تنتظم أمور الخلق ولا تستقم وحدة الوجود، إلاّ بوجود محمّد وآله، صلوات الله عليهم، وذلك ليظهره على الدّين كلّه[3]، يكون الإظهار بتمامه على يد الإمام (ع)، هذا ما تريد أن تبيّنه الزّهراء، صلوات الله عليها.

ثمّ قالت (س): **وإمامتنا أماناً من الفرقة**. نحن الشّيعة لا نفرّق بين أحد، ولا نقول كلمة التّفريق، وإنّما نقول كلمة التّوحيد، عبر الولاية، لأنّه محال تحصيل المعرفة التّامة إلا بهم ومنهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

ولهذا ورد في الزّيارة الجامعة الكبيرة: (**من أراد الله بدأ بكم ومن وحّده قبل عنكم ومن قصده توجّه بكم**)[4]، ولذلك هذه القبلة أمامك لا أحد يسجد للكعبة، وإنّما تتوجّه للكعبة فهي الوجهة التي منها ننطلق إلى الله، ولا يعدّ السّجود ياتجاهها سوى كونها وجهة، فقط السّجود لله، والتّوحيد لله، والعبودية لله، فلا تدّعي ما ليس لك به علم، إننا نتوجّه إلى القبلة، فالقبلة حقيقتها وكنهها وماهيتها

---

[1]- النّور: 55.
[2]- اقتباس من قوله تعالى من سورة الزّمر: 69.
[3]- اقتباس من قوله تعالى من سورة التّوبة: 33.
[4]- مقطع من الزّيارة الجامعة. تقدم تخريج ذلك فراجع.

وأساسها وركنها عبارة عن النّور المتولد فيها، نور الولاية لا غير، لم يولد أحد من قبل فيها لا من نبيّ ولا من رسول، ولا من صدّيق ولا من شهيد ولا ملك مقرب إلاّ عليّ (ع).

أنظر (المستدرك على الصّحيحين) للحاكم النّيسابوري يقول: تواترت الأخبار بأنّ علياً (ع) ولد في جوف الكعبة[1]. ولم يولد أحد من قبل، ولن يولد أحد من بعد، لماذا؟

أراد الله أن يبيّن بأنّ الوجهة الحقيقية لقبول صلواتكم ونوافلكم وعباداتكم وزكاتكم وصيامكم وحجّكم مرتبطة بالولاية لعليّ وآل عليّ صلوات الله عليهم أجمعين.

أراد أن يبيّن أنّ كلّ ما في الحجّ وأسراره، وكلّ ما في الصّيام ومناشئه، وكلّ ما في الجهاد وواقعه، وكلّ ما في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وكلّ ما في الإسلام من أحكام، انّما هو بالوجهة الولائية النّورانية التي انشقّ لها جدار الكعبة، وهو أمير المؤمنين (ع)، وهذا هو السّرّ، وعليه نحيا وعليه نموت، والذي يعتقد بخلاف هذه العقيدة أبتر، (((**إنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر**)))[2]، ليس شانئك فقط في قضية ليس لك عقب وأولاد، وإنّما شانئك في عليّ والولاية، شانئك في أسرار الولاية، شانئك في كلّ ما يتعلّق بهم، صلوات الله عليهم.

أيجوز أن أترك أهل هذا البيت الطّاهر المطهّر بنصّ القرآن، حيث قال تعالى فيهم: (((**إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ**)))[3]، وأتّبع مجموعة بعضهم على

---

[1]- المستدرك للحاكم: 3 / 550 ح 6044 (دار الكتب العلمية ـ بيروت) وانظر كذلك: كفاية الطّالب: 406، الفصول المهمة لابن الصّباغ المالكي: 30، السّيرة الحلبية: 1 / 226 وغيرها من المصادر.

[2]- الكوثر: 2.

[3]- الأحزاب: 33.

الوثنية وبعضهم من شاربي الخمر، وبعضهم لا يعرف له تاريخ ولا أصل ولا فرع؟!

أعاذنا الله جميعاً من الشّرور، وجعلنا من المتمسكين بحبل الله المتقين محمّد وآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين.

البحث الحادي عشر

موضوع البحث:

بحث في بيان علل التّشريعات الإلهية على لسان فاطمة الزّهراء، سلام الله عليها.

قالت (س): **وجعل الإيمان تطهيراً لكم من الشّرك، والصّلاة تنزيهاً عن الكبر، والزّكاة تزكية للنفس ونماءً في الرّزق.**

هذه مقاطع من خطبة مولاتنا الزّهراء (س)، تتضمن معارف حقّة، وعبّرت عن هذه المقاطع بهذا التّعبير، أرادت أن تبيّن علل التّشريعات، فهي كلمات تبيّن فيها العلل والأسباب والدّواعي ولاأغراض من تقنين التّشريع السّماوي.

عندنا بديهية متعارفة فيما بين علمائنا من الأصوليين وغيرهم، يقولون: بأنّ الله إنّما شرّع الأحكام لمصالح في متعلقاتها.

مثال أوّل: يعني أنّ الله تعالى أمرنا بالصّلاة لكونها تنزيهاً لنا عن الكبر، إذاً الحُكْم شُرِّع بلحاظ تلك الغاية الكائنة في متعلّق هذا التّشريع.

مثال ثاني: الله عزَّ وجلَّ شرّع الزّكاة نماءً في الرّزق وتزكية للنفس، إذاً هناك أغراض من تلك التّشريعات، تلك الأغراض هي المستهدفة، وهي المطلوبة

في هذه التّقنيات الرّبانية، يراد للإنسان أن يصل إلى مرحلة الزّكاة التّامّة للنفس والعلوّ والسّموّ وما إلى ذلك من علل وأغراض، إذاً من هنا يتبين من هذه الكلمات علل التّشريعات.

لماذا شرّع الله الصلاة؟

شرّعها لينزّه النّفوس عن الكبر، وبالفعل عندما تأتي إلى واقع الصّلاة تجدها تجعل الإنسان في غاية البعد عن الكبرياء، إذ الكبرياء رداء الله عزَّ وجلَّ، ومن هنا فإنّ السجود يعتبر أعلى درجات التذلّل، عندما يهبط الإنسان بجبهته إلى التّراب ويقول: سبحان ربّي الأعلى وبحمده، إنّما هو في غاية التّذلل لله، فحينئذٍ ينعدم ما هو ضدّه وهو الكبرياء والتّعالي وما إلى ذلك من صفات تخرجه عن حد العبودية، وبكونه عبداً لله.

إذاً تجد أنّ سرّ الصّلاة في كلمة الزّهراء (س)، تنزيه وتقديس للباطن عن أرذل صفة لإبن آدم وهي الكبرياء، التي اختصّ الله بها نفسه، كما في الحديث القدسي: **الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني في شيء منهما قصمته**[1]. ولذا هذه من أهمّ أسرار علل الصلاة.

وهناك أبحاث عديدة في هذا المجال لا يسع الوقت لذكرها، ننتقل إلى القسم الآخر الوارد على لسان الزّهراء (س).

ثمّ قالت (س): **والزّكاة تزكية للنفس ونماءً في الرّزق**. يعني، ما شرّع الله لكم الزّكاة لأخذ أموالكم وللإستفادة منها، بمقدار ما أنتم تستفيدون من عطائكم في هذا المجال، لأنّ عطاءكم تزكية للنفس ونماءً للرزق، إذاً الحكمة والعلّة من تقنين هذا الفرض الإلهي والمعبّر عنه بالزّكاة هو عبارة عن تزكية النّفس، لأنّ النّفس كُلّما آتت ما عندها وأنفقت، مالت إلى جانب الزّكاة، يعني

[1]- مفردات غريب القرآن: 421 – 422، عنه بحار الأنوار: 70 / 192.

جانب الخلوص.

يقول الحقّ تبارك وتعالى: (((**إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة**)))[1].

ونماءً في الرّزق: النّماء في الرّزق خلاف ما يتصور كثير ممن يعطي، ضانّاً أنّ العطاء ينقص من خزينته ورصيده وما إلى ذلك، القرآن ينفي هذا التّوهم قال تعالى: (((**وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه**)))[2]، والزّهراء (س) أيضاً تنفيه وتقول: أنّك إذا زكّيت وأعطيت من مالك، فهو عبارة عن الإنماء والزّيادة، وليس القلّة والخسران، لأنّه من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنّفقة، الذي يتوقع بأنّ الله يخلف عليه بما له من نيّة خالصة مع الله، فقد سخت نفسه بالعطاء.

إذاً نماءً: يعني، عبارة عن ازدياد ونمو لهذا الرّزق للإنسان، ولهذا علّلت مجموعة من التّشريعات بأنّه لو مارسها الإنسان فحينئذٍ يصل إلى النّماء في الرّزق.

ولأمير المؤمنين، صلوات الله عليه كلام بليغ جداً، وفيه مقاطع هامّة تنفعنا في هذا المجال. روي عن سعيد بن علاقة قال: سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول: إلاّ أنبئكم بعد ذلك بما يزيد في الرّزق.

(واورد جملة من الخصال التي توجب الرّزق وتزيده، منها):

أوّلاً: الجمع بين الصّلاتين، يزيد في الرّزق. الإنسان إذا جمع في ما كان عليه النّبيّ (ص) وآله (عليهم السلام) ـ بالقطع من الأخبار بأنّه كان يجمع إلاّ في حالات خاصّة، كأن يكون في سفر أو حجّ أو حرب، في حالات استثنائية، وإلاّ فالقاعدة على الجمع ـ فإنّ رزقه يزيد.

---

[1]- التّوبة: 111.
[2]- سبأ: 39.

ثانياً: التّعقيب بعد الغداة والعصر، يزيد في الرّزق. المراد بالغداة صلاة الصّبح التي لو عقّب الإنسان بتلكم التّعقيبات الرّائعة، دعاء الصّباح مثلاً الذي يمثل سرّاً من أسرار أمير المؤمنين (ع) المودعة، جاء فيه: **يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملاءمة كيفياته**[1]. فإنّ رزقه يزيد.

ثالثاً: صلة الرّحم، تزيد في الرّزق.

رابعاً: كسح الفناء، يزيد في الرّزق، والمراد بالكسح أي، الكنس، يعني، كنس البيت وتنظيفه من الأوساخ يزيد في الرّزق.

خامساً: مواساة أخ في الله عزَّ وجلَّ يزيد في الرّزق.

سادساً: الابكار في طلب الرّزق، أي، أن يبكّر الإنسان في أوّل يومه، فهذا من موجبات الرّزق.

سابعاً: الإستغفار، استغفر الله ربّي وأتوب إليه، هذا الإستغفار الذي يقول فيه القرآن الكريم بأنّ الإنسان لو يستغفر ربّه حينئذٍ لزيد في رزقه. قال تعالى: (((**وَأَرسَلنا السّماء عليهم مدراراً**)))[2] المدرار: المطر الغزير الذي لا ينقطع، وهو كناية عن الرّزق الذي تتمتّع به الأسرة البشرية، إذا استغفروا ربّهم وأكثروا منه.

ثامناً: قول الحقّ، يزيد في الرّزق، وهو أن يقول الإنسان كلمته الحقّة، ولا يميل إلى باطل ولا يحكم به، وقد يتصور البعض أنّه إذا حكم للحقّ انتهى أمره، وأنّه سيفتقر، وأنّه سيحارب، لأنّه قال كلمة الحقّ، الله وعدك وقال: أنا أنمي لك الرّزق وقل كلمة الحقّ ولا تبالي، فإنّ الله معك، ولا يقاس به شيء، وهو الجبّار، وهو الملك المقتدر على كلّ شيء.

---

[1]- انظر مفاتيح الجنان للقمي: 92 (مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم).
[2]- الأنعام: 6.

إنّ علياً أمير المؤمنين (ع) يريد أن يقول: إنّ كلمة الحقّ تقال في كلّ شيء، وتقال في العقيدة أيضاً، بل من باب أولى، فلا تتصور أنّك إذا قلت كلمة الحق في عقيدتك الرّاسخة في أهل البيت، صلوات الله عليهم، أنّ ذلك سوف يؤدي بك إلى الخسران، الله ينمّي لك هذه الكلمة، ويجعل تلك الكلمة هي العليا، وبقية الكلمات في قبالها هي السّفلى.

تاسعاً: إجابة المؤذن، يزيد في الرّزق، أن تجيب من نادى حيّ على الصّلاة، حيّ على الصّلاة... .

عاشراً: ترك الحرص يزيد في الرّزق.

الحادي عشر: شكر المنعم يزيد في الرّزق.

الثاني عشر: اجتناب اليمين الكاذبة يزيد في الرّزق.

الرّابع عشر: أكلّ ما يسقط من الخوان، أي، ما يسقط من السّفرة يزيد في الرّزق.

الخامس عشر: التّسبيح لله يزيد في الرّزق. قد ورد: من سبّح لله كلّ يوم ثلاثين مرّة، دفع الله عزّ وجلّ عنه سبعين نوعاً من البلاء أيسرها الفقر[1].

عبارات عجيبة في غاية الأهمية، لو انشغل الإنسان بها وعمل طبقها وخصوصاً التّعقيب الأعظم الذي يمثل سرّ الله لدى العباد قولك: اللّهم صلِّ على محمّد وآل محمّد، فإنّه به تزال الجبال، وكلّه أسرار، وأيضاً التّعقيب بعد صلاة العصر، وخصوصاً المذكور في هذه الأدعية المخصوصة في هذا المجال فإنّ هذا كلّه يزيد في الرّزق.

---

[1]- انظر الخصال للصدوق: 2 / 505 أبواب السّتة عشر، عنه سفينة البحار للقمي: 3 / 346. فقد أوردا هذه الخصال وغيرها فراجع.

إذاً هناك تعليلات في هذه الممارسات العبادية، فكُلّما مارست فعلاً مندوباً أو واجباً فإنّه يترتب الأثر بلا إشكال، ويتحقق المقصود، ولذا قالت الزّهراء (س): **والزّكاة** – أي، جعل الزّكاة – **تزكية للنفس ونماءً في الرّزق.**

هذه كلمات فاطمة (س)، وهذه بياناتها تنقل عبر الأجيال، وهي دروس للبشرية، رغم أنّ أغلب البشرية عمدوا لإطفاء نورها، وهيهات أن يطفأ ذلك النّور (((**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**)))[1].

ومن المشاهد التي أفجعت قلب عليّ (ع) ما يروي أنّه لمّا أراد أن يلحد فاطمة الزّهراء (س) بقبرها الشّريف وصل إلى شفير القبر، وقف! وكُلّما أراد أن ينزلها في لحدها ما استطاع، لم يستطيع أمير المؤمنين تحريك يده لحمل فاطمة وإنزالها في قبرها، وبينما هو كذلك وإذا بالنّداء: أدرجها يا عليّ، فهاتان يدا رسول الله ممتدتان، يقول: أعطني بضعتي فاطمة[2]. فرجع (ع) إلى داره، بعد أن أعطى الأمانة. ولم ينم حتّى الصّباح؛ لأنّه كان حزيناً مفجوعاً ومثكولاً لفقده فاطمة (س). فالأمانة أُعطيت جسداً ولكن ظلّت روحاً وإيماناً، مشعلاً للولاية وسنداً ومناراً لجميع الحركات التي قامت بعدها ضد الظّلم والطّغيان.

جعلنا الله من الآخذين بثارها، والمنتقمين من أعدائها تحت راية ولدها المفدّى الحجّة بن الحسن، صلوات الله عليه وعلى آبائه.

---

[1]- الصّف: 8.

[2]- مودّة القربى للهمداني: 13 (ط. لاهور)، عنه كتاب فاطمة الزّهراء (س) أمّ الأئمة وسيّدة النّساء لمحمّد حسن النّائيني: 211 (انتشارات - قم).

البحث الثاني عشر

موضوع البحث:

بحث في محور الإمامة بإعتبارها نظاماً للملّة، وأماناً من الفرقة.

قالت مولاتنا فاطمة الزّهراء صلوات الله عليها في خطبتها الغرّاء:

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشّرك، والصّلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزّكاة تزكية للنفس ونماءً في الرّزق، والصّيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدّين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، والصّبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة، وبرّ الوالدين وقاية من السّخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر، ومنمّاة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنّذر تعرضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغيراً للبخس، والنّهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرّجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللّعنة، وترك السّرقة إيجاباً للعفّة، وحرّم الله الشّرك إخلاصاً له بالرّبوبية (((فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون)))[1]، وأطيعوا الله فيما

---

[1]- البقر: 132.

أمركم به ونهاكم عنه فإنّه (((إنّما يخشى الله من عباده العلماء)))[1].

في هذه المقاطع الفاطمية والكلمات الملكوتية النّازلة على الصّدور، فيها دشّنت معظم جوانب الحياة بشراشرها، تأمّلوا في كلّ مقطوعة وكلّ كلمة حتّى يستوفي كلّ واحد منّا مقدار ما أوتي، ويُعطي الله كلّ ذي حقّ حقّه، فيما إذا توجّه بإخلاص وبقلب سليم إلى كلماته، صلوات الله عليها.

أوّلاً: أشير إشارة كلّية بنحو الإجمال، بأنّ هذه الكلمات تضمّنت علل التّشريعات السّماوية، يعني، تريد أن تبيّن، صلوات الله عليها، العلّة في تشريع الصّلاة، والصّيام، والجهاد، والعدل، والأمر بالمعروف، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، وتوفية المكاييل والموازيين، والنّهي عن شرب الخمر، واجتناب القذف، وترك السّرقة وغيرها مما ذَكَرَته في كلمتها الغرّاء. كُلّها تشير إلى العلّة، والغاية في التّشريع، لأنّه نحن معاشر الإمامية نعتقد بأنّ الحكمة في التّشريع هو وجود مصلحة أو مفسدة في متعلّق الحكم، على ضوئها يصدر الأمر أو النّهي.

لِم حرّم الله شرب الخمر مثلاً؟ ولِمَ أوجب الصّيام، وقنّن الزّكاة؟

الخمر بلحاظ كونه يشكّل خطراً بالغ الخطورة، كما قالت الصّدّيقة الكبرى: **والنّهي عن شرب الخمر تنزيهاً لكم عن الرّجس**: لأنّ حقيقة الخمرية إنّما هي عبارة عن اللّوث، وعبارة عن الرّجس الذي لو حلّ في القلب لشكل فيه خطورة بالغة، إذاً لوجود مفسدة في هذا المورد نهى الحقّ عنه، هكذا تريد أن تبيّن الزّهراء، صلوات الله عليها، ولوجود مصلحة في نفس المتعلّق، أوجب علينا فعله، كالصّيام فإنّه ما أوجب الله تعالى الصّيام إلاّ لكونه تثبيتاً للإخلاص، وما أوجب الصّلاة إلاّ لأنّها مخلصاً من جوانب اللّوث في الكبرياء. إذاً كلّ شيء تشير إليه الزّهراء، صلوات الله عليها، بلحاظ بيان علل التّشريعات.

---

[1]- فاطر: 28.

ثانياً: أنّها بينت القواعد والمباني في جوانب الإقتصاد والأمن والرّاحة والسّلام التّامّ، يعني المنهج الذي ترتكز عليه القاعدة الإقتصادية، والمنهج الذي ترتكز عليه المباني الأمنية في المجتمع كلّه، أشارت إليه بكلمات مقتضبات فيها من الإشارات والرّموز، ما تغني العقلاء وتعين الأكفّاء في حياتهم العامّة والخاصّة، وهذه من أهمّ الأبحاث في جوانب الإعتقاد.

إنّها أرادت أن تعطي القاعدة في الإقتصاد، حيث قالت (س): **وتوفية المكاييل والموازيين تغيراً للبخس**. يعني، دفعاً للنقص الذي يحصل من خلال المكيال والميزان، فأرادت أن تبين أنّ قوام الإقتصاد يكون على أساس التّوفية، بمعنى إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، والمساواة بين ما عليه طرف البائع وطرف المشتري.

إذاً أرادت (س) أن تبيّن القواعد والمنهج والأساس في كلماتها هذه، وأرادت أن تثبّت الأمن والسّلامة والإستقرار.

ثمّ قالت (س): **وترك السّرقة إيجاباً للعفّة** . يعني، استقرار أُسس العفاف في المجتمع يقضي على كلّ صنوف السّرقة والإختلاس، وما إلى ذلك من حالات مترتبطة في هذا الجانب، والسرقة تارة تكون بما هو المفهوم منها، وأخرى بالحيّل والتّصرفات المشبوهة، فإذا أريد للمجتمع أن يستقرّ فيكون من خلال الإلتزام بهذه الخطب والبيانات الفاطمية.

ثمّ تبيّن عوداً على بدء لتقول كلمتها الواقعة في أنّه لا يمكن أن يكون الإستقرار في الفروع والإنتهاج على ضوئها، ما لم يتحقق الإخلاص في جانب العبودية، ودفع كلّ ألوان الشّرك والوثنية.

بعدما انتهت من بيان مطالب التوحيد بشكل موسّع، انتقلت إلى مطالب النّبوّة بشكل واضح وبيّن، ثمّ أتت إلى مطالب الإمامة.

حيث قالت (س): **وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة** : لاحظ هذا التّعبير. بعد أن بيّنت أصل الإعتقاد وهو التّوحيد، انتقلت إلى النّبوّة، ثمّ إلى الإمامة، ومن هنا نستكشف أنّ الإمامة من الأصول الإعتقادية للدّين، وليست من الأصول الإعتقادية للمذهب فحسب، لأنّ البعض يعتقد أنّ الإمامة من شؤونات المذهب، هذا الإعتقاد مخالف للعقل والنّقل، أمّا العقل فإنّه يقرّ بلزوم من يمثّل الحقّ تعالى كسفير، كوجه، كمؤدٍ، كمبلّغ في أرضه، لئلاّ تترك الأمّة سدىً، ولئلاّ تضيع البشرية بأكملها، فلذا أرسل إليها رسلاً مبشرين ومنذرين، ليجتمعوا على الكلمة الواحدة، ولئلاّ يتفرّقوا، ومن هنا نستكشف بأنّ الإمامة أصل عقلي، وليس فقط أصلاً نقليّاً، والعقل يحكم بلزوم الحُجّة.

وهذه تعدّ من أهمّ الأبحاث في وقتنا، لأنّ إنكار الإمام أو الإمامة مساوق لإنكار النّبوّة، وإنكار مساوق لإنكار الله وإنكار صفاته وأسمائه وأفعاله، وبالتّالي تبطل الأغراض التي من أجلها وجد الإنسان، لأنّ الإنسان وجد ليعرف الله عبر أسمائه وصفاته وآثاره وأدلاّئه وبراهينه الجليّة وبيّناته الكافية، كلّ ذلك ليتضح للكل هذه الحقيقة، إذاً هذه من المباني العقلية.

ومن هان أنقل لكم نصّاً في غاية الأهمية، وأسفاً! أنّ هذا النّصّ لم يبحث تمام البحث مع كونه من حيث السّند في غاية التّماميّة، ويعد من عجائب وغرائب ودقائق الإمام الحجّة (عج)، وبهذا يكون ردّاً على من ينكر ولادة الإمام (ع) أو وجوده، ويردّ عليه ردّاً عقلياً، قطعياً.

يقول الإمام الصادق (ع): **الحُجّة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق**[1]، يريد أن يقول (ع): بأنّ الحُجّة ليس فقط مع الخلق، وإنّما لابدّ أن يكون قبل الخلق ويكون معهم، وأيضاً الأدقّ بعد الخلق، وهذا موضع نظر العقلاء والكمّل والأولياء،

[1]- كمال الدين للصدوق: 1 / 221 ح 5 (مؤسسة النّشر الإسلامي - قم).

وهذا الحديث مبرهن عليه من القرآن الكريم في أكثر من آية، وفي أكثر من واقعة وحادثة في تاريخ الأنبياء والمرسلين ومن بعدهم من الخلق إلى خاتم الرّسل (ص).

الزّهراء، صلوات الله عليها، ركّزت على هذا المحور، وجعلته أساساً لنظام الطّريقة والتّكوين، والمراد بالملّة: الطّريقة، يعني التّكوين، يعني التّشريع، يعني الوجود، يعني نظام الوجود، وكلّ هذا وغيره يتمثل بالمعصوم (ع)، وبهذا نفترق عن المذاهب الأخرى والمدارس الأخرى على هذا الأساس، وعلى هذه القاعدة التي غفل عنها البعض.

كيف يسيّرون أمورهم على مستوى التّفريعات، ومستوى التّشريعات، ومستوى الإعتقادات، من أين يأخذون علومهم الحاضرة فيما يرتبط بمسائل عديدة وقعت في عوالمنا، بل ووصلت إلى العوالم الأخرى.

إذا لم يكن هناك حُجّة، مفترض الطّاعة (معصوم)، فمن يقوّم لنا أمورنا وحياتنا؟ كيف يتقبل العقل هذا المعنى؟ العقل يقطع بوجوده، كلّ ما هناك مرّة يكون مبسوط اليد فيما إذا اجتمعت الأمّة على طاعته، وإرادته عليها زعيماً موجّهاً، ومرّة لا يكون مبسوط اليد بسبب ترك النّاس له، وانعزالهم عنه، فيديرهم بطريقة غير مباشرة، دون أن يترك البشرية والتّكوين وكلّ ما إلى ذلك، لئلاّ يفسد نظام التّكوين والتّشريع. ولهذا ورد عن الإمام الصّادق (ع) أنّه قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت[1].

كلّنا يعرف بوجود الحُجّة (ع) مع الخلق، قال تعالى: (((**وما كنّا معذبين حتّى نبعث رسولاً**)))[2] يعني نفي العذاب على الإطلاق ما لم يكن رسولاً، وقد قرّر القرآن الكريم هذا حيث قال تعالى: (((**إنّما أنت منذر ولكلّ قوم هاد**)))[3]،

---

[1]- الكافي الشّريف: 1 / 179 كتاب الحُجّة ح1.
[2]- الاسراء: 15.
[3]- الرّعد: 7.

هذه كليّة قرآنية، القرآن يؤكد بأنّه ما من قوم حلّوا على هذه البسيطة إلاّ ولهم هادٍ، والهادي بإجماع العقلاء هم آل محمّد، صلوات الله عليهم أجمعين.

إذاً الحُجّة مع الخلق واضح، قد يتساءل البعض ما معنى الحُجّة قبل الخلق؟ وكيف يكون بعد الخلق؟ وهذا هو موضع نظر الكُمّل والأولياء، إنّهم يعرفون أنّ سرّ الوجود والموجود من هو؟ ومن المقصود بالذّات في خلق هذه الذّوات والموجودات والأعراض والجواهر والصّفات وما إلى ذلك من شؤونات تخفى على الكثير من المخلوقات؟

إذاً ما معنى الحُجّة قبل الخلق؟ وما معنى الحجّة بعد الخلق؟ هذا الّذي تريد أن تؤكد عليه الصّديقة، صلوات الله عليها. نظام الملّة في طاعتهم وإمامتهم، وكون الحُجّة قبل الخلق، عبارة عن أوّل صار وأوّل عقل وأوّل موجود، به يثيب وبه يعاقب، وما خلق خلقاً أحبّ إليه منه، والعاقل الأول والصّادر الأول والكون الأول والجامع الاول هو الحقيقة المحمّدية العلويّة على الإطلاق، هذا هو اوّل مخلوق في دوائر الإمكان، وهو قبل الخلق.

أفرد الشذيخ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة باباً كاملاً في سبق نور رسول الله (ص)، منه: قال: في حديث عن الرّسول الأكرم (ص) أنّه قال: أوّل ما خلق الله روحي، وأوّل ما خلق الله نوري، وأوّل ما خلق الله العقل، وأوّل ما خلق الله القلم، وأوّل ما خلق الله نور نبيك يا جابر. قال: المراد منها هو الحقيقة المحمّدية التي كانت مشهورة بين الكمّل، وهي روح نبيّنا (ص)[1].

الخلق ينطبق على السّماوات والأرضين، على الملائكة المكروبيين، على الأنبياء والمرسلين، على أولي العزم أجمعين، على عوالم اللاهوت، وعوالم الجبروت وعوالم الملكوت وعوالم النّاسوت، هذه كُلّها خلق، كُلّها معلولة

[1]- ينابيع المودّة: 1 / 45.

للحجّة[1]؛ لأنّه صادر عن الله.

الحُجّة قبل الخلق: يعني ما كان موسى ولا كان عيسى ولا نوح ولا إبراهيم، ولا الملائكة أجمعون إلاّ بعد كون الحُجّة (ع)، فالحُجّة قبل الخلق.

ورد في الزّيارة الجامعة الكبيرة[2]، وهي أعظم المقاطع والكلمات والسّبك، وكل ما في الزّيارة الجامعة يفسّر بهذا الميزان وبهذه الكلمات: (الحُجّة قبل الخلق) والزّيارة الجامعة تدور على هذا المدار، ولهذا الذين لم يتحملوا مقاطعها أنكروها، وقالوا: إنّها ليست صحيحة السّند، مع أنّ مقاطعها مبرهنة من القرآن الكريم ومن الأخبار الصّحيحة من جهة السّند والدلالة، وقد وجدتُ هذه الزّيارة الجامعة في كتب السّنة، لدى عالم عاش قبل اكثر من700 سنة، من علما أهل السّنة الكبار المعروفين[3]، الذين شهد لهم ابن حجر العسقلاني في كتبه الرّجالية، بأنّه كان ورعاً ديناً وقوراً، هذا العالم السّنّي يروي بطريقه إلى الإمام الهادي الزّيارة الجامعة باكملها، وهو أولى بالإنكار منك، ولكن يقرّها وينقلها بتمامها، وليثبت أنّ ما فيها انّما هي حقائق لابدّ من التّسليم والإذعان لها، بل لابدّ من الإستسلام لمضامينها.

بعد أن بيّنا المراد من (الحجّة قبل الخلق) نبيّن إن شاء الله تعالى المراد من (الحُجّة بعد الخلق).

قال تعالى: (((**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنه**

---

[1]- المراد هنا بالحّجّة هو: محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم.

[2]- انظر كتاب المؤلف الصّوارم القاطعة والحجج اللامعة في إثبات صحة الزّيارة الجامعة، فيها أثبت بالأدلة العقلية والنّقلية صحّة هذه الزّيارة سنداً ودلالة، فراجع.

[3]- هو إبراهيم بن محمّد بن المؤيد الجويني الحموني الخراساني، ترجم له ابن حجر العسقلاني في كتابه الدّرر الكامنة: 1 / 67 رقم 181 فراجع.

الحقّ)))[1] وقال الحقّ تعالى في آية أخرى: (((**كلّ شيء هالك إلاّ وجهه**)))[2]، فهم، صلوات الله عليهم، الوجه الذي يتوجّه إليه الأولياء. الله لا وجه ولا جنب ولا رجل ولا يد له، هذه كُلّها منفيّة، ولكن يراد بهذه التّعابير من كان بهم الوجود، وتحقق بهم الموجود، فبهم، صلوات الله عليهم، يوجد الأشياء، آدم خلقه من تراب، لماذا تراب؟ يريد أن يبين أنّه لابد، أن تكون الوسيلة التي بها يكون آدم، ومن هو في مرحلة آدم وأبناء آدم، والتّراب هنا إشارة إلى حقائق عجيبة، يذكرها العرفاء والأولياء، التّراب هو: لون من ألوان تقلّبات أبي تراب عليّ بن أبي طالب (ع)، وهذا أمر مسلم من القرآن، قال تعالى: (((**فالمدبرات أمرا**)))[3]، تقبلون وتسلمون بأنّ الملائكة تدبّر الأمور والمنظومة التكوينية، وتسلّمون أنّ ملك الموت يقبض الرّوح، هذا الذي يسمّى بالتّفويض، وهذا الأمر اتخذوا منه ذريعة في التّشنيع علينا، بأنّه كيف نعطي للأئمة التّفويض.

ألم يتمنعوا في القرآن الكريم ويلاحظو أنّ الله تعالى فوّض كثيراً من الأمور، كالإمامة والإحياء وغيرها إلى من هو أقل شأناً ومقاماً من محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم، قال تعالى: (((**قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكلّ بكم**)))[4] وفي آية أخرى على لسان عيسى (ع): (((**قل يتوفّاكم الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله**)))[5] فالتّوكيل الذي ورد في الآية بمعنى، التّفويض. وكذا الإبراء والإحياء وما شاكل ذلك. كلّ هذا فوّضه الله تعالى للملائكة والأنبياء. أفيكون كثيراً على محمّد وآل محمّد، صلوات الله عليهم، إدارة هذه الأفلاك

---

[1]- فصّلت: 53.
[2]- القصص: 88.
[3]- النّازعات: 5.
[4]- السّجدة: 11.
[5]- آل عمران: 49.

والأملاك وحقيقة دوران الأفلاك؟! ورد في الخطبة الإفتخارية، حيث يقول صاحبها، صلوات الله عليه، **أنا قائد الأملاك، أنا سمندل الأفلاك** [1]، كلّ هذه الحقائق ظهرت بهم، الله فوق أن يوصف بوصف، لكنّ الإشارة إلى حَمَلة فعله، ومجاري إرادته، وتراجمة وحيه، وهم الأئمة (ع).

لذلك الزّهراء (س) أرادت أن تبيّن أنّ محور هذا الكون هو عبارة عن الإمام، ونحن خصّصنا البحث في هذه النّقطة، لأنّها سرّ التّشريعات والتّفريعات من صوم وصلاة وما إلى ذلك، لأنّ الصلاة متفرعة على الإعتقاد بهم، فإذا لم يُعتقد بأنّهم حملة لتعاليم الله، وأنّهم مجاري لإرادته تعالى، كيف نعرف أنّ هذه الصلاة من الله؟ كيف استدللنا على الله؟

نقل عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: **بنا عرف الله، بنا عبد الله، لولانا ما عرف الله**[2]. انحصر الباب بهم، وهذا هو الباب الذي يريده الله تعالى (((**وابتغوا إليه الوسيلة**)))[3].

ثمّ قالت صلوات الله عليها: **وطاعتنا نظاماً للملة**: أي، للتكوين.

وإمامتنا أماناً من الفرقة: الإمامة كما في اللغة [4]: هي الشّاقول، يعني، أنّ الأئمة، صلوات الله عليهم، هم الشّاقول الذي توزن به الإنحرافات وتعرف الميولات، فمثلهم مثل الشّاقول، بهم وبأمّهم الزّهراء صلوات الله عليها تُعرف الإستقامة ويهتدي النّاس، ويعبد المعبود. ورد في الكافي الشّريف عن الإمام الكاظم (ع) أنّه قال: **قال أبو عبد الله (ع): إنّ الله عزّ وجلّ خلقنا فأحسن خلقنا... ولولانا ما عُبد الله**[5].

---

[1]- انظر الخطبة الافتخارية في كتاب مشارق أنوار اليقين للحافظ رجب البرسي: 164.
[2]- بحار الأنوار: 26 / 260 ح 38 (دار احياء التّراث العربي - بيروت).
[3]- المائدة: 35.
[4]- انظر لسان العرب: 1 / 214، تاج العروس: 16 / 34 (مادة أمم).
[5]- الكافي الشريف: 1 / 193 كتاب الحُجّة ح 6.

أسرار الخطبة الغرّاء.....132

البحث الثّالث عشر

موضوع البحث:

بحث في أسرار هامّة وحقائق دقيقة في قول فاطمة الزّهراء، سلام الله عليها: **إعلموا أنّي فاطمة، وأبي محمّد (ص)، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً.**

يحار الإنسان مهما بلغ من العمق في التّفكير والعقل والنّبوغ في شرح هذه الكلمات، ينسدّ الباب أمامه وتغلق جميع المنافذ، للوصول إلى تلكم الأسرار التي توخّتها فاطمة الزّهراء، صلوات الله عليها، ولكنّ المجال مفتوح للإشارات، فلعلّها تؤدي إلى العبارات، ومن ثمّ إلى الأسرار.

هنا مقطوعة من خطبتها (س)، تحتاج ليس فقط إلى كتاب أو كتابين وثلاثة، وإنّما إلى موسوعة ومع ذلك لم تفقه كلمتها وتعطي حقّها، وهذا هو الإنصاف، لأنّ كلام أهل البيت (عليهم السلام)، يحتل أولوية ومكانة عالية جداً في البلاغة والفصحاة، بل لا يوجد قياس تفاضل بين كلامهم صلوات الله عليهم وبين كلام بقية المخلوقين.

أريد أن أدخل في مجال هذه الكلمة على خلاف ما دخل كثير من الشّرّاح، وكثير من الذين وقفوا عن كلماتها، إنّ هذه الكلمة هي عبارة عن الحلقة، حلقة

الوصل لما سبق ويأتي من كلامها وخطابها؛ لأنّها بهذه المقطوعة أوقفت عقول الحاضرين، بل عقول كلّ حشد وجمع على طول التاريخ البشري.

قالت: **أيها النّاس**. ولم تقل أيّها المؤمنون! للإشارة إلى أنّ (أيّها الناس) عامّة تشمل جميع النّاس مهما كانوا وعلى أيّة ديانة أو مذهب أو فرقة أو مشرب أو مسلك أو طريقة أو ملة أو جماعة، كُلّهم مخاطبون بهذا الخطاب قالت: **أيها الناس**، ولم تقل يا أيها الذين آمنوا! يا أيها المسلمون! لأنّ الكلام ليس منحصراً في دائرة المسلمين، وإنّما هو كلام يمتدّ من تخوم الأرض إلى عنان العرش، كما سيتضح الآن في هذه الأبحاث الهامّة، والتي تكون المفتاح إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: (((**وعنده مفاتح الغيب**)))[1]، هذه المفاتيح، كما قال القرآن الكريم عبارة عن الأسرار التي تؤدي إلى تلكم الحظائر، حظائر القدس المخفيّة على الأنس وعلى جميع الخلائق، ممّن سبق أو يأتي، ممّن علا أو سفل على الإطلاق.

قالت (س): **أيها النّاس أنّي فاطمة** . هذه تحتاج إلى دواوين وكتب، لو كان البحار مداداً، والأشجار أقلاماً، والجنّ والإنس كتّاباً وحُسّاباً، لما أحصوا سرّ وبيان هذه الكلمة (**إعلموا أنّي فاطمة**) لأنّ الكلّ يستسلم أمام ما تقول، لا يملك ما يقوله، ماذا تريد الزّهراء أن تقول؟ فلا ريب أن التّصديق فرع التّصور، أوّل مرّة يجب أن يحصل تصوّر عند الإنسان حتّى تأتي مرحلة ثانية هي التّصديق، فإذا تمّ تأتي مرحلة ثالثة وهي مرحلة التّلفيق في العبارات وتكوين الجمل.

اعلموا أنّي فاطمة: ماذا تريد أن تقول؟ هناك سرّ، البعض يقول:

---

[1]- الأنعام 59.

١ - إنّها تريد أن تقول: أنا فاطمة بنت النّبيّ، أنا المتفوّقة على النّساء بشهادة النّبي (ص) (**سيدة نساء العالمين**)[1] تريد أن تعرّف خصائصها الظّاهرة في هذا العالم وما لها من امتيازات.

٢ - أو تريد أن تشير إلى الإسم، كوني أنا فاطمة بنت النّبيّ محمّد بن عبد الله (ص)، هذه التّفاسير إلى القشر أقرب منها إلى اللّب، لو تريد أن تقول أنّها إبنة النّبيّ، ففي بداية الخطبة عرضت عليكم قائلاً: أنّها بأنّة واحدة أجهش لها القوم بالبكاء، فارتجّ المجلس حتّى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم. الغليان الذي حصل على أثر أنّة فاطمة، ألم يعرفوا من هي فاطمة؟! الكلّ يدرك ويعرف في عوالم التّكوين ومناشيء عوالم التّكوين، في أنّها سرّ مقنّع بشخص المصطفى (ص) (**وأبي محمّد**) وهذا دليله معه، قضية قياساتها معها، ومسألة برهانها معها، لماذا؟ لأنّة:

أوّلاً: قالت: **إنّي فاطمة** ليس المراد هنا الإشارة إلى اللّفظ، وإنّما إلى المعنى.

ثانياً: ليس المقصود من هذه الكلمة الإسم، وإنمّا أرادت سرّ الإسم، **إنّي فاطمة**، بمعنى أنّ تكوينة هذا الوجود ما كانت ولن تكون إلاّ بالسّرّ المحمّدي الكامن في السّرّ الفاطميّ.

ثالثاً: لو اكتفت بالمقطع الأول (**أنّي فاطمة**) لربّما قلنا في مقام التعريف في عالم الظهور، وفي عالم الأسماء، وفي عالم الألفاظ، لكن قالت: (**وأبي محمّد**) إشارة إلى الأبوّة، وهي الأصل في الكينونة، وهي المنشأ في الوجود والإيجاد،

---

[1]- انظر عوالم فاطمة للشيخ البحراني: 1 / 125 باب: إنّ الله تعالى اختار فاطمة (س) على نساء العالمين. فقد أورد مجموعة من المصادر والرّوايات في ذلك فراجع.

بأنّني من ذلكم السّرّ الذي يكنو له مقام التّقدّم، والذي يعرف في عالمكم بمحمّد (ص)، ولأجل أن يتضح هذا المقام بشكل موسّع ومهمّ تمعّنوا في هذا النّص بشكل دقيق.

الذي تريد الزّهراء أن تبيّنه مقام الجمع، لا مقام الفصل والفرق، لأنّ هناك عالمين ومقامين بإجماع المحدّثين والمفكرين وأولي الألباب جميعاً قالوا هناك عالمان:

١ - عالم يسمّى عالم الوحدة وعالم الجمع.

٢ - وعالم آخر يطلق عليه بعالم الفرق، وعالم الفصل.

إذاً هناك عالمان، عالم الجمع وهو المشار إليه في القرآن الكريم (((**قد أنزل الله إليكم ذِكراً رسولاً يتلو عليكم**)))[١] وأيضاً المشار في القرآن الكريم بالنّور الذي أنزل معه، وكلّ ما يرتبط بهذا المقام في القرآن الكريم، لأنّ الله عزَّ وجلَّ إنّما ظهر بهذا النّور الذي ذكره في أكثر من موضع قرآني، بل وسمّى به سورة كاملة باسم النّور، هذه السّورة التي ذكرَ فيها سرّ عالم الجمع وعالم الوحدة، إذ أنّ النّور لا يتميّز ولا يثنّى ولا يتكرّر، فالنّور كما يقول أهل الإصلاح في هذه المجالات هي الوحدة الواحدة الظّاهرة بذاتها والمظهرة لغيرها، يعني أنّهم ظاهرون في عوالم الأنوار بذواتهم ظهر كلّ شيء.

كما أنّ السّراج الذي هو أمامك، عبارة عن سراج مضيء بذاته ومضيء لغيره، ظاهر هذا المصباح بنفسه، ومظهر كل ولي ولجميع الأشياء القابلة للرؤيا، فهم في ذلك العالم، عبارة عن وحدة واحدة لم تثنّ ولم تكرّر ولم تُفصل، انّما هو نور واحد. أنظر إلى كلام المعصوم (ع) في الزّيارة الجامعة: (**أشهد أن أرواحكم**

[١]- الطّلاق: 10 – 11.

ونوركم وطينتكم واحدة، طابت وطهرت بعضها من بعض)[1].

إذاً حالة النّورانية، وحالة الرّوح أيضاً الطّينة، لا يخفى أنّ المراد بها ليس هذا التراب، وإنّما في النّصّ الصّادقي عبارة عن طينة من جوهر تحت العرش، هذه التي كان منها البُنية الحقيقة المحمّدية والحقيقة العلويّة، والتي أفيضت على الشّيعة من الأنبياء والمرسلين وعلى الشّيعة من غيرهم، قال تعالى: (((**وإن من شيعته لإبراهيم**)))[2] لكونه أخذ من جوهر تلك الطّينة التي كانت عبارة عن جوهر تحت العرش فانفصل لتكون منه أبدانهم وأشباحهم المثالية، وبها تكون كلّ أشباح وأبدان الشّيعة من الأنبياء والمرسلين ومن غيرهم من الشّيعة التّابعين لهم.

إذاً الحقيقة هناك واحدة وإنّما في عالمنا شاء الله أن يتحوّل هذا النّور إلى أربعة عشر نوراً، يتجلّى في سماء الدّنيا، قال تعالى: (((**وأشرقت الأرض بنور ربّها**)))[3] والمراد هنا بالرّبّ أي الصّاحب، والمراد بالصّاحب هو الإمام (ع) في مقام الفرق وفي مقام الفصل وهو مقام الدّنيا، حيث كانوا أنواراً متعددة في أبدان متعددة كُلّها تشير في جوهرها وحقيقتها إلى تلكم الأنوار الأوّلية، قال مولانا أمير المؤمنين، صلوات الله عليه: **كلّنا محمّد، أوّلنا محمّد، وآخرنا محمّد، وأوسطنا محمّد**[4].

---

[1] - مقطع من الزّيارة الجامعة: أوردها الصّدوق في كتابه من لا يحضره الفقيه: 2 / 372 (ط - دار الكتب الإسلامية - طهران). وعيون أخبار الرّضا: 1 / 307 (مؤسسة الأعلمي - بيروت). ومن كتب ابناء العامّة، فرائد السّمطين للجويني: 2 / 184 (ط - المحمودي - بيروت).

[2] - الصّافات: 83.

[3] - الزّمر: 69.

[4] مقطع من الخطبة النّورانية المنقولة عن الإمام أمير المؤمنين (ع)، أنظر مشارق أنوار اليقين للبرسي: 160 (ط - نشر فرهنك أهل البيت (عليهم السلام) - طهران).

قالت (س): **اعلموا أنّي فاطمة** . هذا الذي تريد أن تقوله، تقول: ما كينونتكم، ووجودكم بأيّ شيء؟ ارجعوا إلى أصل التّكوين، إلى علل هذا الوجود، إلى الأسباب التي كانت بها هذه الوجودات، اعلموا أنّي ذلكم النّور الذي انشطر من نور العظمة كما في هذا النّصّ، إنّ الله خلق نور محمّد (ص) من نور اخترعه من نور عظمته وجلاله، وهو نور لاهوتيته الذي تبدّى منه، وتجلّى لموسى بن عمران (ع) لطلب رؤيته، فما ثبت ولا استقر ولا طاقة له لرؤيته حتّى خرّ صعقاً مغشياً عليه كان ذلك النّور نور محمّد (ص)، فلمّا أراد أن يخلق محمّداً (ص) قسّم ذلك النّور إلى شطرين، فخلق من الشّطر الأول محمّد (ص)، وخلق من الشّطر الآخر عليّ بن أبي طالب (ع)، ولم يخلق من ذلك النّور غيرهما...

إلى أن يقول: ثمّ اقتبس من نور محمّد (ص)، نور ابنته فاطمة، كما اقتبس نوره من نوره، هم خلقوا من الأنوار، وانتقلوا من صلب إلى صلب، ومن رحم إلى رحم في الطّبقة العليا، من غير نجاسة، بل نقلاً بعد نقل لا أنّه من ماء مهين، ولا نطفة كسائر خلقه، بل أنواراً انتقلوا من أصلاب الطّاهرين إلى أرحام المطهرات؛ لأنّهم صفوة الصّفوة، اصطفاهم لنفسه، لأنّه لا يُرى ولا يُدرك، ولا تُعرف كيفيته ولا إنّيته، فهؤلاء النّاطقون المبلّغون عنه، المتصرّفون في أمره ونهيه، فبهم تظهر قدرته، ومنهم ترى آياته ومعجزاته، وبهم يطاع أمره، ولولاهم ما عرف الله، ولا يُدري كيف يُعبد، فالله يُجرى أمره كيف يشاء وفيم يشاء، ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون[1].

هذا هو السّر في عالم الوحدة، أنّهم كانوا قبل هذا الخلق، اعلموا من أنا، انسبوني إلى حقيقتي النّورانية وإلى منشأي في هذه العوالم، حتّى صرت قدّام

[1]- كنز جامع الفوائد للكراجكي: مخطوط. عنه بحار الأنوار: 35 / 28 – 29 ح 24.

أصاغر الأذلّين، وخامل المنافقين، وأمثال هؤلاء الذين قالت فيهم الزّهراء، صلوات الله عليها: **هدر فَنيق المبطلين، فخَطر في عرصاتكم، وأطلع الشّيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين**، هذا السّرّ الذي تريد أن تبيّنه فاطمة (س).

قال تعالى: (((الله **الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن**)))[1].

ما المراد بالأمر الذي يتنزّل بين السّماوات والأرضين؟

فأمّا صاحب الأمر فرسول الله وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة (عليهم السلام)، هم الذين يتنزّلون بين السّماء والأرض، وقد أحاطوا بإذن الله بكلّ شيء علماً، لأنّهم مجاري إرادته ومحالّ مشيئته، بهم جرت الإرادة الإلهية، كما أنّ الله يُجري الخلق بالأسباب، وبالوسائط، بالمدبّرات أمراً، بالمقسّمات أمراً: يعني، الملائكة. فهم أولى أن تجري بهم الإرادة الرّبانية في مختلف شؤونات التّكوين والتّشريع، وهذا أمر محتوم لا شكّ ولا ريب فيه.

قالت (س): **اعلموا أنّي فاطمة**. إنّ القوم كانوا يدركون مغزى هذه الكلمة، وقالت: **وأبي محمّد**، والكلّ يعرف أنّ أباها محمّد (ص)، ولكنها كانت تريد أن تؤكد أنّ المنشأ والأصل في عالم النّور، الوحدة الحقيقة الجامعة، فوالله، لن نبلغ بالمعرفة لتلك المراتب التي رتّبهم الله فيها، وتلك المقامات التي أنزلهم الله تعالى فيها حيث جعلهم معادن كلماته وآياته. ورد عن المعصوم عليه السلام أنّه قال: **ولا فرق بينك وبينها إلاّ أنّهم عبادك**[2]، هذه الكلمات من الأسرار التي لابدّ أن تبيّن للأسرة البشرية، لابدّ أن تظهر هذه الحقيقة للناس، وأنّ السّرّ الذي ينبغي أن يقال

---

[1]- الطّلاق: 12.
[2]- اقبال الأعمال لإبن طاووس: 145.

بأنّ الإرادة هنا في عوالمنا إنّما تجري بهذه الذّوات، كما في زيارة الإمام الحسين (ع) حيث جاء فيها: **إرادة الرّب في مقادير أموره، تهبط إليكم، وتصدر من بيوتكم**[1].

الشيخ الصّدوق يقول: بأنّ هذه أعلى وأصح الزّيارات عندي، وهي الزّيارة المطلقة التي فيها: (**أشهد أنّ دمك سكن في الخلد** ـ مخاطباً الحسين (ع) ـ **واقشّعرت له أظلّة العرش**)[2].

قالت (س): **أقول عوداً وبدءاً**. يعني، أنّي عندما أقول **اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمّد**، أقولها أوّلاً وآخراً، ولن أتنازل عنها على الإطلاق.

ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً . يعني، تجاوزاً عن الحد، وإنّما أفعل وأقول طبق المراد، وهذه هي العصمة في أعلى درجاتها. من يستطيع أن يتصدّى لهذه الكلمة؟ لأنّهم يعلمون جيداً أنّها سرّ النّبيّ، والنّبيّ سرّها، هي محمّد ومحمّد هو فاطمة، كلمات بيّنات واضحات، ولذلك أشارت إلى أنّ الأنبياء كانوا يأخذون تعاليمهم عبر الوحي، والوحي ما هو إلاّ واسطة.

لماذا يجعل الله الواسطة؟ لأنّ الله تعالى يريد أن يبيّن أنّه حتّى في مقادير نشر الرّسالات السّماوية لابدّ من أن يكون سبب، ما هو السّبب؟

حقيقة الرّوح حقيقة النّور، حقيقة كلّ ما في شؤوناتهم انّما هي تفسّر بهذه الكلمة، أنّ الكلّ قدّ أذعن لأوامرهم وزواجرهم، كما ورد في الزّيارة الجامعة: (**وذلّ كلّ شيء لكم**)[3] مقام النّبوّة، مقام الرّسالة ولهذا ورد عن المعصوم (ع):

---

[1]- فروع الكافي الشّريف: 4 / 577 (دار الكتب الإسلامية ـ طهران).
[2]- من لا يحضره الفقيه للصدوق: 2 / 357 - 361.
[3]- من لا يحضره الفقيه للصدوق: 2 / 372، وعيون أخبار الرّضا للصّدوق: 1 / 307. ومن كتب أبناء العامّة، فرائد السّمطين للجويني: 2 / 184.

(**قولوا فينا ما شئتم ونزهونا عن الرّبوبية، ولن تبلغوا**)[1] ولن تفيد التّأبيد. تبقون عاجزين أبداً، لماذا؟

ورد في الزّيارة الجوادية: (**بكم تحرّكت المتحركات، وبكم سكنت السّاكنات**)[2].

الله أراد أن يكونوا هؤلاء، صلوات الله عليهم، هم المحور، قال تعالى: (((**والله جنود السّماوات والأرض**)))[3] يدبّرون الأمور، فإذا كانت الملائكة تدبّر الأمور، فكيف بمن كانت الملائكة بهم، هنا ينقطع اللّسان، إطفأ السّراج فقد طلع الصّبح، وهذه هي الحقيقة، وهذا ليس إتحاداً ولا غلواً ولا حلولية ولا ما إلى ذلك من المتبنّيات الوثنيّة، إنّا نقول: هو الله لا إله إلاّ هو، وشاء الله أن يجعل هؤلاء من المتبنّيات الوثنيّة، إنّا نقول: هو الله لا إله إلاّ هو، وشاء الله أن يجعل هؤلاء أسباب إرادته، كما أنّك تسلّم شؤونات الإحاطة للهدهد، عند ما أجاب سليمان (ع)، كما في قوله على ما أُخبر القرآن الكريم: (((**أحطت بما لم تحط به**)))[4] الهدهد يقرّر له الإحاطة بكلّ أوضاع الممالك، والعفريت من الجنّ (((**أنا آتيك به من قبل أن تقوم من مقامك**)))[5]. وما إلى ذلك من شؤونات عالم الحيوان والقدرات الهائلة المودعة فيها، ألا تكون القدرات المودعة في من كان بهم الكون كلّه، بما فيه من أنبياء ومرسلين، وبما فيه من صدّيقين وصالحين، أفلا يكون لهم مقام الإحاطة؟!

ولذلك ترى البعض ـ ممّن ليس له قدرة وقابلية ـ يعترض على خطب أمير المؤمنين (ع) وينكر بعضها ويصفها بالغلو.

---

[1]- بصائر الدّرجات للصفار القمي: 236 ح5 (منشورات مكتبة المرعشي النّجفي ـ قم).
[2]- انظر بحار الأنوار: 99 / 54.
[3]- الفتح: 4.
[4]- النّمل: 22.
[5]- النّمل: 39.

قالت (س): **أقول عوداً وبدءاً**. أقول كلمتي في البداية والنهاية، أقول كلمة **لا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً**، لأنّي أنا فاطمة، واعلموا من هي فاطمة؟ وأبي محمّد، واعلموا من هو محمّد؟ هذه كلمات فاطمة الزّهراء، صلوات الله عيها.

أسأل الله أن يوفقنا لولايتها وبرّها ومعرفتها النّورانية ببركتها، صلوات الله عليها، وأن يسامحنا ويعفو عنّا إن أخطأنا في بيان المراد من كلامها صلوات الله عليها، لأنّ كلامها لا يمكن الإحاطة بمعانيه وأسراره، ولكن وكما ذكرنا في المقدمة، بأنّ كلامنا مجرد إشارات وتنبيهات لكلامها صلوات الله عليها.

اللّهم إنّا نشكوا إليك فقد نبيّنا، صلواتك عليه وآله، وغيبة إمامنا، وكثرة عدوّنا، وقلة عددنا، وشدّة الفتن بنا، وتظاهر الزّمان علينا، فصلِّ على محمّد وآل محمّد، وأعنّا على ذلك بفتح منك تعجّله، وبضرٍّ تكشفه، ونصر تعزّه، وسلطان حقّ تُظهره، ورحمة منك تجلّلناها، وعافية منك تُلبسناها برحمتك يا أرحم الراحمين وصلّى الله على محمّد وآل محمّد.

عبد الكريم العقيلي

في الأوّل من ذي الحجّة 1421 هـ

ذكرى نزول الأمر الإلهي بزواج النّور من النّور ـ عليّ من فاطمة.

فهرس المصادر

القرآن الكريم

نهج البلاغة للإمام عليّ (ع) (صبحي الصالح).

- أ -

الاحتجاج للطبرسي.

الإرشاد للخليلي.

أسد الغابة لإبن الأثير.

أعلام النّساء لكحالة.

اقبال الأعمال لإبن طاووس.

- ب -

بحار الأنوار للمجلسي.

بصائر الدرجات للصفار.

بلاغات النساء لإبن طيفور.

البلد الأمين للكفعمي.

البيان في أخبار صاحب الزمان (عج) للكنجي الشافعي.

بلاغات النساء لإبن طيفور.

البلد الأمين للكفعمي.

البيان في أخبار صاحب الزمان (عج) للكنجي الشافعي.

- ت -

تأويل الآيات الظاهرة للأسترآبادي.

تاج العروس للزبيدي.

تاريخ الأئمة ووفياتهم لإبن الخشاب.

تاريخ الطبري للطبري.

تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي.

تفسير أحكام القرآن للقرطبي.

تفسير العيّاشي للعياشي.

تفسير القمي.

تفسير الكشاف للزمخشري.

تفسير مفاتيح الغيب للرّازي.

تلخيص الشافي للطوسي.

- ح -

الحاوي للفتاوي للسيوطي.

- خ -

الخصال للصدوق.

دائرة معارف القرن العشرين لوجدي.

دلائل الإمامة للطبري.

دلائل النبوّة للبيهقي.

دول الإسلام للذهبي.

روضة الواعظين للفتال النيسابوري.

سُبل الهدى لمحمد الشّامي.

سفينة البحار للقمي.

السّقيفة وفدك للجوهري.

سنن ابن ماجة.

سنن أبي يعلى الموصلي.

سنن الترمذي.

سير أعلام النبلاء للذهبي.

السيرة الحلبية.

سيرة المصطفى لمغلطاي.

السيرة النبوية لإبن كثير.

- ش -

الشّافي للمرتضى.

شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد.

- ص -

صحيح البخاري.

صحيح مسلم.

الصّوارم القاطعة للشيخ عبد الكريم العقيلي.

الصّواعق المحرقة لإبن حجر.

- ض -

ضياء الصالحين للجوهرجي.

- ط -

الطّرائف لإبن طاووس.

- ع -

علل الشرائع للصدوق.

عوالم العلوم للبحراني.

عيون أخبار الرّضا عليه السلام للصدوق.

- غ -

الغدير للأميني.

الغيبة للنّعماني.

- ف -

فاطمة الزّهراء (س) أمّ الأئمة وسيدة النّساء للنائيني.

فاطمة الزّهراء (س) بهجة قلب المصطفى للهمداني.

فرائد السمطين للجويني.

فردوس الأخبار للديلمي.

الفصول المهمة لإبن الصباغ.

- ك -

الكافي للكليني.

الكامل في التاريخ لإبن الأثير.

كتاب سليم بن قيس الهلالي.

كشف الخفاء للعجلوني.

كفاية الطالب للكنجي.

كمال الدين للصدوق.

كنز جامع الفوائد للكراجكي.

كنز العمال للهندي.

- ل -

لسان العرب لإبن منظور.

- م -

مرآة الجنان لليافعي.

مستدرك الحاكم للنيسابوري.

مسند أحمد.

المسند الجامع.

مشارق أنوار اليقين للبرسي.

مصباح الزّائر لإبن طاووس.

مصباح المتهجد للطوسي.

مطالب السّؤال للكنجي.

معاني الأخبار للصدوق.

معجم البلدان للحمويني.

مفاتيح الجنان للقمي.

مفردات للرّاغب.

مفردات غريب القرآن.

مقتل الحسين (ع) للخوارزمي.

مقتل الحسين (ع) للمقرم.

من لا يحضره الفقيه للصدوق.

منال الطالب لإبن الأثير.

مودّة القربى للهمداني.

موطّأ مالك.

الميزان للطباطبائي.

مناقب آل أبي طالب لإبن شهر آشوب.

- ن -

نهضة الحسين (ع) للشهرستاني.

- و -

الوافي بالوفيات للصفدي.

الوفا بأحوال المصطفى لإبن الجوزي.

- ي -

ينابيع المودّة للقندوزي.

أسرار الخطبة الغرّاء.....150

فهرس الموضوعات

الإهداء: 5

المقدمة 7

البحث الأوّل

أسانيد الخطبة الغرّاء من مصادر الخاصّة وعامّة 15

البحث الثاني

أسرار في معارف الحمد ونقطة الباء 25

البحث الثالث

بحث في حقائق التّوحيد وأسرار الشّهادة بالوحدانية 35

البحث الرّابع

أسرار في أبحاث العقيدة الهامّة وهو بحث المشيئة 47

البحث الخامس

في سرّ أنّ الكون وما فيه لآل محمّد، صلوات الله عليهم عن طريق البرهان المسمّى: بغنى الله المطلق 57

البحث السادس

بيان معنى الآية: (((النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم))) 65

البحث السّابع

أسرار نشأة الأنوار المحمّدية 75

البحث الثامن

بحث في أدوار المصطفى (ص) وأنوار وجوده على العوالم كُلّها 85

البحث التّاسع

أبحاث في أسرار الإيمان وانطباقه على الولاية الكبرى 95

البحث العاشر

بحث في أنّ الزّهراء (س) محور التكوين والتشريع 107

البحث الحادي عشر

بحث في علل التّشريعات الإلهية 117

البحث الثاني عشر

بحث في محور الإمامة 123

البحث الثّالث عشر

بحث في قول فاطمة (س): **إعلموا أنّي فاطمة** 133

فهرس المصادر 143

فهرس الموضوعات 151